دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تنظيم وتوحيد جهود الحركة الإصلاحية
تحليل مضمون لعينة من صحيفة البصائر 1935 -1936.

مريم لعماري

الملخص:

إن البحث في الحركة الإصلاحية في الجزائر وخاصة لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يعرف اهتماما كبيرا وواسعا لما شغله من حيّز في مختلف المجالات الفكرية والدينية والتنظيمية، كونها مثّلت فاعلا أساسيا في المجتمع الجزائري، ما أوقفنا على الاهتمام بأسباب ودواعي ظهورها بالوقوف على الظروف التي تشكلت فيها وأسباب ودوافع تبلورها وبروز دورها كعناصر للتغيير الاجتماعي داخل المجتمع، والوقوف على الخلفيات الفكرية والإيديولوجية التي استمدت منها الحركة سياقات ومبررات وجودها وبنائها وتركيبتها واستمرار نشاطها وانتشارها كرد فعل على واقع سياسي واجتماعي وثقافي للمجتمع الجزائري خلال الاستعمار الفرنسي يتيح لنا فهم العديد من الممارسات وتوجهاتها الراهنة. وعلى هذا الأساس فإن قراءة الظروف التاريخية التي تشكلت فيها الحركة الإصلاحية الجزائرية والأسس الفكرية التي انطلقت منها كفيلة بإعطاء فهم واستيعاب لهذه الظاهرة خلال مرحلة تاريخية هامة من تاريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

RESUME :

Rôle de l'association des Oulémas Musulmans Algériens dans l'organisation et l'unification des efforts du mouvement réformiste algériens.

La recherche sur le mouvement réformiste en Algérie, notamment l'Association des Oulémas Musulmans Algériens, connaît un grand et large intérêt pour le champ qu'il occupe dans divers domaines, intellectuel, religieux et d'organisation, étant un acteur clé dans la société algérienne, ce qui nous interpelle à prêter attention aux causes et raisons de son apparition.

Se pencher aux circonstances qui ont motivé sa création, et l'émergence de son rôle en tant qu'élément du changement social au sein de la société, outre les motivations intellectuelles et idéologiques qui ont motivé les contextes et raisons d'être, ainsi que son développement, la continuité de son activité et sa propagation comme réaction à un vécu politique, social et culturel de la société algérienne durant le colonialisme français, nous permet de comprendre un grand nombre de pratiques

Abstract:

The role of the Algerian Islamic scientists for enhancing and organizing the Islamic reform movement efforts in Algeria

The Islamic reformer movement in Algeria has a big interest now days because of its remarquable effect that time, on all the intellectual, religious, and regulatory fields. It was one of the most effective representatives or actors in Algeria society during the French colonial time. This later, leads us to try to figure out the reasons behind its appearance and why did it become one of the most important figures for the social changes in Algeria .Besides that, we are obliged to explain the intellectual and ideological back grounds that allow the Algerian Islamic scientists association to exist. We need to say that this was as a reaction to the political, social and cultural facts of the Algerian society during the French colonial years. Undoubtedly, this will help to understand the association's acts and purposes for the present. On the basis above, we can say that the analysis of these historical and intellectual facts, which cause the association's appearance, is quietly enough to understand and get a clear image about this phenomena, especially, during a sensitive historical period of the movement's history under the Algerian Islamic scientists leadership.

et leurs orientations actuelles, et sur cette base, la lecture des circonstances historiques ayant engendré le mouvement de la réforme algérienne et les bases intellectuelles qui l'ont motivé, nous permet de donner une explication et comprendre ce fait au cours d'une période historique algérienne importante de l'histoire du mouvement de la réforme algérienne dirigée par Association des Oulémas Musulmans Algériens.

تمهيد:

لقد عرف المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات الإسلامية حضور فعّال لظاهرة الحركة الإصلاحية وتغلغلها بين مختلف شرائح و عناصر وفئات المجتمع، فبرز تأثيرها واضحا في العديد من جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية حيث ارتبطت الحركات الإصلاحية الدينية منذ ظهورها بالأزمات والهزات الاجتماعية التي عمدت لتغيير المبادئ والقيم الاجتماعية الأصلية؛ لعب الدّين دورا هاما وأساسيا في المحافظة على نسق النظام الاجتماعي العام، كونه منهج حياة لابد منه في حياة كل فرد وجماعة لما له من علاقات تفاعلية متبادلة بعناصر النظم الاجتماعية الأخرى وارتباطاتها المكوّنة لبنى المجتمع من خلال وظيفته التغييرية باعتباره نسق من الأفكار والاعتقادات التي تؤثر على سلوكيات الأفراد وبين دوره كنظام اجتماعي ليظهر في هيئة جماعية وحركة دينية تسعى للتغيير، برزت هذه الأخيرة كظاهرة اجتماعية وحركة ثقافية تربوية وسياسية، تجسدت مظاهرها في صور عديدة بممارسات فردية واسعة أو جماعية للشعائر الدينية وعودة مكثفة لفئات عريضة من الناس إلى الدّين؛ عرفت الحركة الإصلاحية الإسلامية أول وجود منظم لها في الجزائر متمثل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي جاءت كرد فعل لتلك المرحلة التاريخية من عمر المجتمع الجزائري الذي كان يتخبط من سيطرة العدوان الاستعماري الفرنسي والذي وصل لمرحلة متقدمة من محاولة بتر الكيان الجزائري عن إطاره الثقافي والحضاري العربي الإسلامي لإلحاقه بالكيان الثقافي الحضاري الفرنسي الغربي بعد ما تمت له عملية إحكام القبضة الإمبريالية السياسية الاقتصادية والإدارية عبر فلسفة استعمارية مارستها سياسة استيطانية مقننة ممنهجة بإستراتيجية تسعى للاحتفاظ بالجزائر كمستوطنة دائمة خلف البحر، ومركزة بأساليب مختلفة ومتنوعة لتفتيت وتفكيك البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية منذ 1830م، ليمتد التوغل للعبث والمساس بثوابت الأمة الجزائرية وهويتها من لغة ودين وثقافة بالتسلط على مقومات شخصية الشعب الجزائري وفصله عن انتمائه الحضاري وسلخه عن موروثه الثقافي بمختلف الآليات والوسائل والطرق بدءا بسياسة التقتيل الجماعي(الإبادة)، التفقير والتجهيل(التجويع بالمجاعة)والتنصير والفرنسة ثم التجنيس للإدماج فيما بعد؛ إن ظاهرة الإصلاح الديني اتخذت بُعدا كونيا وشملت المجتمعات كلها(كالنصرانية واليهودية)حيث عرفتها كل

الحضارات بمختلف أصولها الثقافية وجذورها التاريخية كما تباينت في مستوى انتشارها ونموّها حتى في المجتمع الواحد كونها تدعوا للعودة لحضيرة الدّين الصحيح بعد تنقيته مما أضيف إليه أو حرّف منه عبر إرجاعه لأصله الأول؛ تمثلت جهود الحركة الإصلاحية الإسلامية عامة وجهود جمعية العلماء المسلمين خاصة بمقاومة ثقافية ورد فعل حضاري وثقافي منظم ومدروس اتجاه المشروع الاستعماري الاستيطاني حاولت من خلاله استيعاب الواقع بكل أزماته وآلامه ومكوناته التي طالها التحطيم في أغلب بناها الأساسية، ما خلّف توترا عاما وعدم توازن في مؤسساتها الحيوية لأداء أدوارها و وظائفها حتى تحقق أهدافها بالسير قدما في ركب الأمم، فاستطاعت الجمعية استيعاب أغلب جوانب الضرر والإصابة وإدراك الخلل في المجتمع الواقع تحت ليل الاستعمار، بحثت في جذور الأزمة والأسباب العميقة التي تكمن وراء هذا الخلل التي لا ينفع معها معالجة الآثار الناجمة عن الآلة الإستدمارية رغم أهميتها، بل يكمن العمل الأهم بإصلاح هذه الأمة بما صلح به أولها، فحققت بذلك نقلة ثقافية نوعية فتحت الآفاق لانطلاق دعاة الإصلاح من داخل المجتمع للتأكيد على الهوية الجزائرية في شعارها" **الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني**"بقيادة نخبة من العلماء على رأسهم **الشيخ عبد الحميد بن باديس**، فتنظمت وتوحّدت جهود الفاعلين في الساحة الجزائرية لمسيرة النضال المشترك بمختلف تيارات الحركة الوطنية الموروثة عن المقاومة الثقافية والسياسية التي تجسدت عام1954م في جبهة التحرير الوطني تحت لواء تحرير الجزائر.

تحتل مرحلة الإصلاح الديني والتربوي الثقافي والاجتماعي في تاريخ الجزائر أهمية كبرى وهو من بين المواضيع الهامة ، وإن كانت الأدبيات والدراسات التاريخية تناولت بعض جوانبها وخاصة تلك التي اهتمت بأعلامها إلا أن الدراسات السسيولوجية تبقى في هذه الفترة معتمة وقليلة وغير كافية أمام الأهمية التي مثلتها داخل المجتمع الجزائري باعتبارها(الحركة الإصلاحية وبالأخص **جمعية العلماء المسلمين)**كإنتاج إيديولوجي فكري ديني سياسي ثقافي واجتماعي جسد محتوى الفكر الإيديولوجي للحركة، وانبثاقها بشكلها الجماعي المنظم بكل خصوصياتها وشخصيتها التي ميّزتها عن غيرها من الحركات الإصلاحية الإسلامية الأخرى في العالم، وتمّ عبرها الانتقال بالمجتمع الجزائري من حالة الوهن والضعف الشديد في كل مجالاته الاجتماعية إلى مركز الفعل والقوة بعد اليقظة الفكرية والوعي الديني والثقافي والسياسي لإنقاذه من سيطرت الجهل وظلم واستبداد

الاستعمار، باعتنائها بتنمية وتربية الجانب الديني والعقدي والتربوي والفكري والثقافي الصحيح للأفراد وتأسيس النسق الفكري والثقافي للأمة الجزائرية وأدركت بذلك إصلاح عدة مستويات ومجالات اجتماعية هامة وحيوية.

1- الاستعمار الفرنسي في الجزائر(المرتكزات و الأهداف):

يعد القرن 19م من أخطر القرون وأغربها مقارنة بما سبقه، لكونه القرن الذي أرست فيه قواعد ودعائم الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى(البريطانية والفرنسية)التي لم يسبق لها مثيل، اعتبرت الجزائر الهاجس الذي أقض مضاجع ملوك وساسة أوروبا لفترات طويلة؛ ومع بداية غزو الجزائر عام 1830م بدعوى نشر الحضارة، فحرص الاستعمار الفرنسي على مخططات واستراتيجيات استعمارية توسعية استيطانية مرتبطة بالثورة الصناعية والرأسمال الصناعي عبر استخدام القوة العسكرية للاحتلال و فرض السيطرة المباشرة لأراضي افريقيا وآسيا وتحويلها لأقاليم خاضعة وتابعة لدولة مركزية واستغلالها كمصدر للمواد الخام ثم كأسواق لمنتجاتها الصناعية وقواعد عسكرية تحمي مصالحها هناك، وعليه فإننا نريد أن نعطي قراءة مفادها أن الاستعمار كنمط وظاهرة ليست مرتبطة بفترة زمنية معينة فحسب بل الاستعمار حركة تكتسي لكل عصر لباسا وتتسمى بعدة تسميات تتكيّف في كل مرة مع مختلف التقلبات و الظروف والمعطيات، لذا لابد من معاودة التحليل والفهم سواء لظاهرة الاستعمار في ظل ظروف العولمة الجديدة والنظام العالمي الجديد وتتبع بقاء عقيدة الهيمنة والتوسع والتحكّم واستمرارها بأشكال مستترة متجددة بأشكال من التفوّق العلمي والتكنولوجي والإعلامي في ظل اختلال التوازن العالمي لتبحث عن قوة جديدة ترى نفسها فيها منتصرة للخير والحرية والعدالة والمساواة وعن عدوّ جديد.

كما يمكننا رصد بعض المرتكزات الاستعمارية الأساسية التي قامت عليها المدنية الأوروبية المتمثلة في:مرتكز علمي، شعاره السيطرة على الطبيعة والاهتمام بالعلوم المادية، مرتكز اقتصادي التدبير الجيد لعوامل الموارد الطبيعية المستجلبة من المستعمرات واليد العاملة الرخيصة...، مرتكز تنظيمي في المجال الاجتماعي والتدبير السياسي، المرتكز العسكري امتلاك القوة وفرض السيطرة، المرتكز الإعلامي، ومن هنا يظهر لنا مدى التكامل والتعاون في سياسة الدول الأوروبية وخاصة بين عاملين أساسيين هما: الديني والسياسي وهذا ما تثبته العديد من الأحداث عبر مختلف مناطق

العالم الإسلامي، فيثبت لنا أنّ التنصير والاستعمار ورجال الدين والسياسيين وجهان لعملة واحدة. أمّا عن دعائم الاستعمار الذي استغل الثقافة والمعرفة لأغراضه التوسعية والتي كان لها دورا هاما في توجيه الإمبراطوريات الاستعمارية وتبرير أعمال الاستعمار عبر:الاحتقار والازدراء وإظهار دونية الآخر ثقافيا وعلميا والتفوّق على الغير، واضطلع به رجال الثقافة والمعرفة بتوجهاتهم الفكرية والسياسية وإيديولوجية وبروز أدوارهم في وضع أسس المدارس الاستعمارية الأنتربولوجية أمثال:**آرثر غوبينو** و**جورج فاشي دو لابوج**... والمدارس التاريخية ك**ألكسي دو توكفيل**، والعديد من الرحالة الفرنسيون ورجال الدين بمدارسها الإستشراقية والتنصيرية.

هدفت ظاهرة الاستعمار الفرنسي في الجزائر إلى استيطان الأراضي بالقوة العسكرية والتوسع واستيطان الفكر والثقافة عبر محو مقومات ومرتكزات الهوية والشخصية الوطنية والحضارية للشعب الجزائري وإبدالها بشخصية تابعة خاضعة هجينة وعميلة، منتهجة في ذلك سياسة تمهد لتذويبها ثم لإدماجها نهائيا في الكيان الفرنسي، سعت في الخمسين سنة الأولى من الاحتلال إلى تحطيم الوضع السياسي والبناء الاجتماعي والثقافي القائم بتدمير النظام الاجتماعي العام وتفكيك تكوينه القبلي آنذاك، وإحداث كوارث ديموغرافية تمت تصفيتها بالقتل في الحروب والمعارك والإبادات الجماعية والتهجير والطرد والنفيّ، وسياسة الأرض المحروقة بحرق المحاصيل وإفراغ المطامير وتدمير الزراعة والرعي فاختل النظام القبلي والتركيب السكاني للبلاد وتدهورت معه الحالة الاجتماعية والاقتصادية بسلب ومصادرة الأملاك والأراضي الزراعية من أصحابها وتمليكها للمستوطنين الأوروبيين الوافدين، لتتدهور بذلك الحياة الفكرية والدينية والثقافية للمجتمع الجزائري بسبب تدهور الوضع الاقتصادي كنتيجة مباشرة لتدمير مؤسسة الأوقاف الإسلامية الخيرية والقضاء الإسلامي التي كانت تغذي الحياة العامة آنذاك و القضاء على المدارس والمعاهد بصفة خاصة والتي كانت تغذيها الأوقاف الخيرية ما أفرز تدهورا في منظومة التكافل الاجتماعي التي كانت أساس الحياة الفكرية والدينية والثقافية للمجتمع وتعمل على تخريج العلماء والقضاة والمعلمين والأئمة والإداريين...وبالتالي القضاء على المرجعية الدينية في البلاد ومحاربة اللغة العربية بإضعافها والتدخل التعسفي في الحياة الدينية للمسلمين الجزائريين فتدمّر معه النظام التعليمي التقليدي وموارده المادية والمالية، وحلّت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية

وتم تجهيل الجزائريين بها، وما بقي من الدّين عبث به أصحاب الطرق الصوفية المنحرفة وخدّروا به الشعب بنشر البدع والخرافات والضلالات الذي أدى بدوره لتخلّف عام وتوقف نظام التعليم بسبب استخدام السلطات الاستعمارية للسلك الديني لخدمة أغراضها السياسية بإيقاف وظيفة الزوايا الايجابية ومطاردة واضطهاد علمائها وطلبتها ومدرسيها، فبسطت الدولة الاستعمارية نفوذها وبدأت بإعادة هيكلة وبناء مؤسساتها لنسق استعماري مسيطِر جاء كتتمة طبيعية لمرتكزات السياسة الاستيطانية القائمة على إحداث الفراغ على آثار وأنقاض مؤسسات المجتمع الجزائري التقليدية الذي ستملؤه بشتات المستوطنين وشذّاذ الآفاق، فالهدف هو إيجاد الاستقرار في المستعمَرة(الجزائر) قصد التوسّع بعد ذلك نحو تونس والمغرب ثم افريقيا السوداء لتتناسب ومستوى الأفكار والرؤى والتصوّرات الاستعمارية في تجسيد مشروع:"**الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا**"وفق الأمر الملكي الفرنسي الصادر في 22جويلية 1834م[1] الذي أساسه سياسة الغزو والسلب والنهب والتخريب ثم إيجاد أسس مستعمرة دائمة في الجزائر حسب العديد من المسئولين والمثقفين الفرنسيين، وممن عبّر عن ذلك **سيسموندي** قائلا:"لا نكتفي بغزو المملكة الجزائرية بل نجعلها مستعمرة وقطرا جديدا يسمح لنا بنقل الفائض من سكان فرنسا ونشاطها إليه"[2]عبر الطرد العنيف والمتواصل للأهالي والاحتلال الواضح للأقاليم والنقل والاستبدال الفوري للسكان.

2. الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للجزائر خلال الاحتلال الفرنسي:

إن الدارس والباحث لا يستطيع أن يقف على جانب ايجابي من حقيقة الاستعمار الفرنسي وسياسته ومخططاته للجزائر إذ يعتبر كارثة ألمت بالأمة الجزائرية خاصة والعربية الإسلامية عامة، كونه(المجتمع)ظل يعاني ويقاسي من الأزمات طيلة مدة الاستعمار فكانت الإبادة المادية والمعنوية للشخصية والهوية العربية الإسلامية الجزائرية ممنهجة صاغتها عدة قوانين ومراسيم وبنود لتحقيق الغايات المتمثلة في إخضاع الجزائريين وأراضيهم وإلحاقها بفرنسا ثم تنصيرهم، مستندة في ذلك للعديد من رجال الدين والعلماء والسياسيين والإداريين والمستشرقين من بينهم:**دوتوكفيل، سيسموندي،**وللسياسيين:**فيزو، بولينياك**، ومن قبلهم الملوك: **شارل العاشر** و **لويس فليب والإمبراطور نابليون الثالث**، ومن الجنرالات والضباط العسكريون:**دوبورمون،**

كلوزبل، بيجو، دوروفيغو،...و كثير منهم آمن بفكرة **الجزائر فرنسية** واتخاذها مستعمرة دائمة، إلا أن أكبر عائق ستواجهه فرنسا بعد احتلال الجزائر وقوف الجزائريين لها بالمرصاد ورد الفعل العنيف والصريح الذي لعبته فترة المقاومة الشعبية المسلحة بتضييق الخناق عليها وحصرها في مدينة الجزائر فقط، بداية من مقاومة **بن زعموم** و**الحاج السعدي** و**بن مبارك القليعي** إلى **الأمير عبد القادر** و**أحمد باي**، مرورا بالعديد من الزعامات المحلية:**لالة فاطمة نسومر** و**الشيخ بوبغلة** و**بوزيان القلعي** و**الشيخ بوعمامة** و**المقراني** و**الشيخ حداد** وولداه **عزيز** و**محمد**... فتجلت المقاومة وأثبتت أنها لن ترضى سوى بخروج الاستعمار، معتمدة على عدة وسائل للمقاومة طيلة فترة الاحتلال فرفض(نفسيا)الشعب الجزائري الخضوع لسلطة الاستعمار(الكافر)،كون عقيدة التوحيد والاعتصام بالدين الإسلامي أولى الخيوط التي التف حولها للمقاومة ، واحتمل في سبيل هذه الغاية خلال الفترة1830-1871م ثمنا باهظا من أبنائه في المعارك و الإبادات العشوائية والتأديبية للقبائل المشاركة في المعارك والقتل بسبب أو بدونه، تميزت المقاومة الشعبية المسلحة بالطابع الجهادي وعرفت استمرارية وتداخلا زمنيا بينها عبر مختلف مناطق الوطن واتساع نطاقها كما تنظمت تحت قيادات جماعية(دينية وأخرى عسكرية)، وساهمت في بث ونشر الوعي والحفاظ على الروح الثورية لترسيخ فكرة الجهاد ورفض الاستعمار بكل أشكاله ، وهنا تظهر أمامنا جدلية هامة مفادها:

- **إرادة القوة العسكرية الاستعمارية في الاحتفاظ بالجزائر كمستعمرة دائمة وإلزامية إخضاعها بالقوة.**
- **إرادة الشعب الجزائري لإنهاء حالة الاحتلال وطرد الفرنسيين من الجزائر.**

وبصدد متابعة هذه الجدلية فإن حالة الاستعمار الفرنسي للجزائر ستقسم لفترتين هامتين في ميدان مجابهة الاستعمار العسكرية بين طرفين متناقضين وإرادتين متشاكستين متنازعتين:

- الفترة مابين1830-1880، وهي فترة كانت حاسمة في الصراع بين القوة الفرنسية والمقاومة الجزائرية.
- الفترة 1880م وما بعدها.

وظفت فرنسا أقصى ما يمكنها من إمكانيات وموارد وطاقات لتحقيق غايتها في الاحتلال والتوسع مهما كان الثمن لبناء المستعمرة الدائمة بانتهاج أسلوب عسكري لم يشهده

ويألفه الجزائريون، بدءا بإنهاء الحكم العثماني للجزائر والقضاء على المؤسسات السياسية الرسمية التي كانت موجودة بداية بمؤسسات الحكم المركزي والدواوين وطرد الأتراك والكراغلة الذين كانوا يمثلون السند السياسي والإداري للدولة الجزائرية لعد قرون وتدمير النخب السياسية الأساسية المؤطرة للمجتمع والدولة والإطاحة بالزعامات التقليدية القائمة وشيوخ القبائل، وبهذا البتر قطع الاستعمار الفرنسي أواصر الانتماء الروحي والسياسي للجزائر مع دولة الخلافة الإسلامية التي نظمت المجتمع الجزائري لعدة قرون، وأحلت مكانها مؤسساتها الاستعمارية العسكرية وتشريعاتها واضعة بذلك نظمها الإدارية الغربية الغريبة عن المجتمع القبلي الجزائري بهدف جرّه بالقوة للتحديث، وإفراغ ثرواته المعدنية والحيوانية والزراعية ونقلها لتدفع بها الحركة الاقتصادية والنهضة الصناعية والتكنولوجية في فرنسا، ولن يتأتى لها ذلك إلا من خلال مراحل هامة بدأتها بإنهاك المجتمع بالحروب والثورات التي لم تهدأ ثم العمل على خلق واقع طائفي متصارع مزوّر ومضاد يعمل من خلال توظيفه للتأثير وإشاعة حالة اللاستقرار وعدم التعايش وإثارة النعرات والخلافات بين فرق الطرق الصوفية من جهة وخلق الجهوية من جهة أخرى ليسهل تفكيكه؛ وأنتجت سياسة التسلّط الاستعماري بعد حروب عديدة الانهزام والرضوخ والتبعية التعسفية والوقوع في الدونية صورتها الطرق الصوفية المنحرفة كقدر محتوم ومفروض لابد من القبول به كأمر واقع، ما أدى بالمجتمع لدخوله في حالة من التخلّف بسبب التسلط الذي اختل معه توازن القوى ووصل الإنسان المستعمَر فقد فيه إنسانيته واللامساواة وصار لا حياة له ولاحق فضربت شخصية الفرد الجزائري المسلم وتكالبت عليه مؤسسات التنصير لإضعاف ارتباطه الوثيق بالعقيدة الإسلامية وتحقير ثقافته ثم العمل على تفكيك هويته عبر إحداث شرخ في انتمائه وعمقه الحضاري العربي الإسلامي وجذوره التاريخية وزرع الفتن والتمايز العرقي وتغذية روح الكراهية والفرقة والحقد بين الجزائريين.

وعليه فإن فترة1830-1871هي مصيرية للجزائر أرسيت فيها دعائم الاستعمار بكل مرتكزاته بعناية تامة أما البناء الذي تمّ بعد ذلك فما هو إلا صورة لتلك الدعائم والمرتكزات، وهذه الفترة 1830م-1871 التي يسميها **شارل روبير آجيرون بجزائر العسكريين**[3]تناولناها بهدف تتبع أهم الخطوات العسكرية التي سارت عليها فرنسا لتطويع الجزائر وإخضاعها إخضاعا كاملا لها، مستخدمة عدة وسائل للسيطرة تمثلت

حسبه في"**أجهزة الإدارة- العدالة- الشرطة، الضرائب**"[4]ليستتب لها الأمر تمهيدا لاستيطان الكولون، عبر سياسة الأرض المحروقة والتقتيل الجماعي وشن عمليات الرزايا لتجويع من بقي منهم وترحيلهم ليحل محلهم فائض السكان الفرنسي، عبر التحكم في القضاء وفرض الضرائب ...وحسب **أليكسي دوتوكفيل** فينبغي أن ينشئ مجالا حيويا وراء البحر وأعتبر أن الجزائر هي الحل لآفة الفقر...كما دافع الشاعر **لامارتين** في الجمعية الوطنية الفرنسية عن شرعية كل الوسائل التي تمكّن الاحتلال والاستيطان وتحقيق عظمة فرنسا الإمبراطورية، إذ يقول:"الاحتلال هو وسيلتنا لخلق الثروة والمحافظة على بنائها السياسي، أيها السادة مهما كانت الوسائل فإن الاستيلاء على مقاطعات وراء البحر في الإمارة العثمانية وإفريقيا ضرورة لفرنسا ولعدد سكانها المتزايد"[5]، وتزامن مع تلك الأحداث التاريخية التقتيل الانتقامي تحت اسم التهدئة، بعد كل انتفاضات عارمة ومقاومات شعبية متفرقة للأشخاص والجماعات جاءت كنتيجة للظلم والقهر والإذلال، ثم التقتيل الوقائي الذي يأتي كخطوة مستبقة لمنع أي انتفاضات تهدف للردع والإرهاب ومحاصرة السكان في محتشدات ولإزاحة أي عائق ممكن أن يقف في طريق الاستيطان ومحاصرة المؤطرين والمنظمين للنخب والزعامات التقليدية المثقفة وطبقاته البرجوازية والسياسية في المجتمع الجزائري الذي تعرض لضربات وهزات عنيفة سارت وفق عمليات التفكيك والتي أصبح من المستحيل إبطالها ،وأتت عليه مصادرة أراضيه مما شوّه تركيبته السكانية(الحضر والبدو)لدرجة لا يمكن إصلاحها بتفتيت الملكية الجماعية بقانون تقسيم أراضي الأعراش Sénatus Consulte، فتضعضع معها نظام الاقتصاد ومعه التجارة الداخلية والخارجية الإسلامية، وانتهى الدور السياسي للمدينة في الحضر والقبيلة في البدو ،فبعد تفتيت الملكية القبلية للأراضي وانتزاعها من أصحابها لتوزيعها على المعمرين وبروز الملكية الفردية لم يعد للفرد نشاطه المادي المتمثل في الزراعة والرعي من وجود، فيما كانت تمثل الأراضي القاعدة المادية للنشاط الاقتصادي في الريف ما أدى لظهور احتياطي ضخم من اليد العاملة البطالة بقي في حالة ضياع وتشريد ومعاناة وسبب نزوحا وهجرة متعددة الاتجاهات"داخلية وخارجية" تدفقت من الريف نحو المدينة طلبا للعمل فتكدست الأحياء والمدن الهامشية التي لم يعرفها المجتمع الجزائري من قبل هربا من الوضع المزري لوضع أكثر إنسانية، بلغ تدهور وانهيار المجتمع الجزائري التقليدي أكثر مراحله تقدّما في عناصره وبناه الاجتماعية الأساسية

باستخدام سياسة"فرّق تسد"فاخضع مختلف الزعماء التقليديين للجزائر لمكاتب شؤون الأهالي والمكاتب العربية وبه تمّ فصل الشعب بشكل غير مسبوق عن قياداتهم و تم التحكم في مصير محيطهم الطبيعي(الأرض والقبيلة)؛ وهذا التحويل الذي سعت فرنسا لإحداثه على الجزائر والجزائريين في أقل من قرن استدعى إصرارا من الحكومة الفرنسية ومن المستوطنين مواظبة وحماسا، فجاءت الأهداف الرئيسية للحكم الاستعماري لإنشاء مجتمع عصري في مستعمرة حديثة، أمام ضرب القواعد الأساسية لهذا المجتمع في حكومته التقليدية وملكياته لأراضيه ومؤسساته الأساسية ومدارسه ومعاهده الثقافية والعلمية والدينية، وصار الأمر حدثا وأمرا واقعا لأول مرة في المغرب العربي وبالتالي كان الاستعمار أفضع تخريب أصاب التاريخ والمجتمع بمختلف أبنيته ومكوّناته وعناصره ما أثّر سلبا على توازن المجتمع في قوانينه التي كانت تنظمه وتحكمه قبل الاحتلال، وفُرِضت عليه البنى الاجتماعية والاقتصادية الغربية الدخيلة الغريبة عن مؤسساته وبناه الأصلية التي كانت قائمة ومحاولة محو كيان مجتمع كامل واستبداله بمجتمع آخر ليتحول إلى منجم للمواد الأولية الخام المادية والمعدنية والبشرية لتحرّك به عجلة اقتصاد الإنتاج الرأسمالي في فرنسا.

أمعن الاستعمار في الإخلال بمعادلة الحق والواجب في حق الجزائريين من خلال القوانين الاستثنائية(قانون الجنسية 1865، قانون كريميو 1870)- فالعديد من ممارساته كانت تهدف للتحقير العرقي- والإجحاف في فرض الضرائب والغرامات الباهظة جعلت منهم بموجب قوانين الأهاليIndigène**1881**في رتبة بشرية منحطة، وفي المقابل مطالبون بالتجنيد الإجباري منذ 1912، فأخذ الاستعمار بذلك وجهة أخلاقية معكوسة للمهمة الحضارية التي أشاعها عبر القهر والتسلط على الشعب الجزائري بممارساته الاستبدادية؛ وراحت مرتكزات الاستعمار تتغلغل وتحكم السيطرة على المجتمع الجزائر أرضا وشعبا "بإمداد المستعمرين بدراسات حول الخصائص السلالية و ظروف سكان الشمال الإفريقي وحياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم الدينية وخصائصهم الحربية والعسكرية للتعامل بفعالية مع واقع

هذه المجتمعات"[6]للانقضاض على ثقافتهم فالسنوات الأولى للاحتلال الفرنسي لم تخلو من ممارسات تكتسي طابع الحرب الثقافية لكن بعدما وصل المساس بالهياكل الاقتصادية والاجتماعية لدرجة كبيرة من التدمير والتفكيك والتحطيم على المستوى العميق ضعفت بذلك القدرة على المقاومة، و"...بدأ التدخل الأجنبي يتغلغل في المجال الثقافي لتكتمل أبعاد السيطرة"[7].

ومن هنا تبدأ الفترة الممتدة من 1880 وما بعدها بالقضاء على أغلب المقاومات الشعبية والثورات والانتفاضات بعنف شديد وإنهاك المجتمع لجأ الاستعمار لأساليب أكثر فعالية تضمن له ديمومة وسيطرة مستمرة للعمل الممنهج والمقنن والمدروس على الجبهة الثقافية والدينية الداخلية باعتبارها أخطر جبهة لتحسم المعركة الأخيرة بأساليب أكثر فعالية تحدد له بقاءه الدائم عن طريق تغيير الواقع الثقافي للجزائر، وبدأ العمل على هذه الجبهة يتمثل في القضاء على ثقافة المهزومين،- والثقافة التي نقصدها هي المعرفة والمعتقد والأخلاق والدين والقانون...- بيد أننا لابد أن نوضح أن هذه العملية كانت لها مراحل توازت مع المرحلة السابقة1830 -1880م ثم استمرت بخطى ثابتة وبرزت بشكل واضح بعد فشل ثورة **الشيخ المقراني** و**الأخوان الرحمانيين** ونزع السلاح من كل الجزائريين وتسليط الضرائب والغرامات عليهم، حيث عبّر **ألفريد رامبو** الذي كان وزيرا للتعليم عام1897م يقول"كان الغزو الأول قد تمّ بالسلاح وانتهى مع 1871بانتزاع السلاح من بلاد القبائل...ويتمثل الغزو الثاني في حمل الأهالي على أن يقبلوا بإدارتنا وبعدالتنا، وسوف يتحقق الغزو الثالث عن طريق المدرسة، إذ يجب أن نضمن السيطرة للغتنا وأن تدخل في أذهان المسلمين الفكرة التي نحملها عن فرنسا ودورها في العالم، وأن تحل محل الجهل والأفكار المسبقة المنغلقة، المفاهيم المدققة للعلم الأوروبي"[8]ولا يتأتى إلا بتأسيس وتشكيل مجال ثقافي جديد للجيل الجديد وفق رُؤية وتصوّر وإيديولوجية استعمارية تخدم المشروع الاستيطاني الكولونيالي بعد استقرار الجبهة العسكرية؛ بدأ الاستعمار بهذا التأسيس بخطوات مدروسة من كبار المفكرين والمنظرين والفلاسفة باعتبار منطقهم يفرض عليهم"مسبقا وجود شخصية الطرف الآخر، لكي يقضي عليها...يؤكدها تأكيدا سلبيا بإذلالها وإنكارها كقيمة"[9]، ظهرت فيها سياسته بارزة وواضحة المعالم(للتفرقة والتمييز العنصري الديني والعرقي في جانب

الحقوق والواجبات والامتيازات بين السكان الجزائريين المسلمين الذين ذاقوا وبال هذا القانون الاستغلالي(قانون الأهالي)وبين المستوطنين الأوروبيين)، يقول **أليكسي توكفيل** المنادي بحقوق الإنسان في فرنسا ومعجب بالديمقراطية في أمريكا:« إذ ينبغي أن يكون هناك تشريعان مختلفان تماما في افريقيا لأنه يوجد فيهما مجتمعان متمايزان...،لاشيء أبدا يمنع عندما يتعلق الأمر بالأوروبيين بالتعامل معهم...،كأنه لا يوجد غيرهم، إن القوانين التي نعدها لهم لا تنطبق على غيرهم» [10]فأمعنت في سياسة الكيل بمكيالين والتي تمثلت في تحطيم الأسس التي تقوم عليها البنية الثقافية بالاستيلاء وتدمير مؤسسات الأوقاف الخيرية التي كانت تغذي الحياة الثقافية مثل:"أوقاف الحرمين الشريفين، أوقاف سبل الخيرات، أوقاف المساجد والجوامع والقباب والزوايا والجبانات، وأوقاف الأولياء والأشراف وأهل الأندلس، وأوقاف الجند والثكنات والمرافق العامة..."[11]،فهذه العملية للإستلاء على الوقف ضربة قاضية ومخططة وممنهجة للحياة الدينية والثقافية لكونه"...يشكّل مردود الوقف المصدر الأساسي والوحيد لرعاية الخدمات الثقافية والدينية في الحضر والريف...أما الفائض من مردوده ليُستَغل في إنشاء أماكن جديدة للعبادة والتعليم. أما مصاريفه فهي عديدة ومتنوعة حسب الأغراض التي وقفت لأجلها كالنفقة على رجال العلم والمدرسين والطلبة ومساعدة الفقراء والمعوزين ورعاية وصيانة المرافق العامة..."[12]وبذلك كانت وسيلة اقتصادية فعّالة وهامة في دعم كل الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية والجزائرية تضمن التماسك والترابط الاجتماعي والمواساة للفقراء وترسّخ تكافله وتعاضده في الرخاء والشدة إلا أن الاستعمار أصدر أولى قراراته المتعلقة بالأوقاف في8 سبتمبر 1830م ونصت على حق الاستحواذ على أملاك موظفي الإدارة العثمانية وعلى بعض الأوقاف التابعة لمؤسسة أوقاف الحرمين، ثم توالت التشريعات لتسهيل عملية ابتلاع أملاك الأوقاف بطريقة تدريجية؛ فصدر قرار ordonnance في أكتوبر1844م ينص بصريح العبارة لكون الوقف لم يعد يتمتع بصفة المناعة والحصانة الدينية كونه من مقدسات المسلمين، وصار خاضعا لأحكام المعاملات المتعلقة بأملاك العمومية ثم توسعت صلاحياته بمرسوم 1858م الذي أخضع الأوقاف لقوانين الملكية العقارية المطبقة في فرنسا، ثم قرار 1873م الذي استهدف التصفية التامة لأوقاف المؤسسات الدينية لصالح التوسع الاستيطاني.[13]

وهذا يُظهر لنا جانب آخر هام في الاستعمار الفرنسي"الذي لم يكن مجرد إجرام عسكري وإنما كان إرهابا سياسيا، اجتماعيا، ثقافيا وهو يمارس على الجزائريين مختلف القوانين الإدارية التعسفية بتمزيقه للنسيج الاجتماعي ومحاولة إزالة كل مظاهر الثقافة في السلوك والعلاقات...حوّل الاستعمار الفرنسي الجزائر إلى مخبر تجارب لأصحاب الفكر والمنظرين الذين يحسنون الاستفادة من ثروات الشعب الجزائري الثقافية و الاقتصادية و الاجتماعية "[14]، فعُطلّت مختلف النظم الثقافية والتعليمية العربية الإسلامية وحورب اللسان العربي واستبدل باللغة الفرنسية جبرا وقهرا لتحل الثقافة الفرنسية والديانة النصرانية محل الثقافة العربية الإسلامية والديانة الإسلامية وزاحمت الكنائس المساجد والجوامع وعرف العمران الإسلامي تخريبا وتغريبا في محيطه المادي الحضاري وبالتالي جاء دور الحرب الثقافية والدينية، التي سارت منذ البداية موازية لعملية الهدم وإضعاف الكيان الثقافي التقليدي العربي الإسلامي وبعده كعملية مقابلة ومتممة ومكملة هي تأسيس وبناء نسق ثقافي استعماري جديد يسير وفق القيم والمعايير التي يرتضيها مخطط الاستعمار الاستيطاني بل و أكثر من ذلك، لتخدمه وتتبعه دون قيد أو شرط باعتبار حلقاته متواصلة الأهداف والمهام كلما تمت حلقة أفضت إلى الحلقة الأخرى وهكذا، إن استقرار أهداف حلقة التوسع العسكري والاستيطاني التي تفضي لأهداف بسط حلقة الهيمنة السياسية على الدول المنهزمة ثم بسط أهداف الحلقة الاقتصادية لإفراغ البلدان المستعمرة من ثرواتها و خيراتها، وتليها بسط أهداف الحلقة الدينية الصليبية لتنصير هذه المجتمعات، ثم بسط أهداف الحلقة الاجتماعية التي تعمل بدورها على خلق الفوضى وعدم التوازن والاضطراب في المجتمعات المستعمَرة لتجعل منها تابعا مطيعا لها وعاجزا عن التقدّم والرقي مهما حاول بسبب التعطيل الحاصل له في مختلف بناه وأسسه العاجزة عن منع الاضطراب جراء التخلف والتأخر الذي تعرضت له هذه المجتمعات، فهي حتى الآن لم تعد إلى مثل سابق عهدها(أي قبل الاستعمار) بل طالها التشويه والمسخ فلا هي بنى اجتماعية وعناصر كان يعرفها المجتمع قبل الاستعمار ولا هي تشبه بنى وأسس وعناصر المجتمعات المتقدمة الأوروبية، الأمر الذي جعلها عاجزة عن أداء بعض وظائفها المختلفة للسير في ركب عصر التطوّر الذري الذي حرمها منه الاستعمار، ثم تأتي حلقة الهدف الثقافي والفكري باعتبارهما الصورة ما قبل الأخيرة للاستعمار- وهو الاستعمار الذي ما تزال الأمم

والشعوب تعانيه إلى اليوم كون حلقاته لم تنتهي بعد، رغم نيل أغلبها الاستقلال السياسي لأراضيها وسيادتها في حكم أوطانها وحق تقرير مصيرها إلا أنها ما تزال تتخبط في أزمات خانقة تتجاذبها منذ ذلك الاستقلال، لاختيار أنماط حكمها لبلدانها(الاشتراكية والديمقراطية والجمهورية والملكية...)– إن الاستعمار مارس دورا تعطيليا على تطوّر المجتمع الجزائري فلا تستطيع لا العودة من حيث انتهى بها الأمر لدى دخول الاستعمار ولا أن تسير وفق ركب الحداثة والتحديث الأوروبي باعتبارها(الحداثة)أوجدت شرخا في النمو الاقتصادي والصناعي الذي لم يكن نتاجا اجتماعيا في المجتمعات المستعمَرة وإنما سُيِّر نحو التحديث بالقوة لإمداد التقدم الأوروبي بالمواد الخام لأنه لم يكن إنتاجا علميا وثقافيا وفكريا لها، بل صَدّر لها منتجاته وفرض عليها أسواقه، وبالتالي جعلتها تعيش تستورد إنتاج حضارات غيرها و تكدّس منتجاتهم، الذي من شأنه خلق"مشاكل خطيرة فالإنسان يعيش في تبعية حضارية وإمّعة اقتصادية وسياسية لغيره "[15]وهو مظهر من مظاهر التخلّف والتبعية والإمعة والتقليد الأعمى للغرب.

والذي يعطينا الصورة الدرامية التي وصل إليها التعليم في البلاد وعبّر عنه **دي توكفيل** باسم لجنة 1847م قائلا:«لقد وضعنا أيدينا على عائدات المؤسسات الخيرية...تركنا المدارس تتهاوى، وحلقات العلم تتفرّق؛ إن الأضواء انطفأت من حولنا...لقد جعلنا المجتمع الإسلامي أكثر جهلا وأكثر بربرية مما كان عليه من قبل أن يعرفنا...[16]»بسبب هذه الفترة انقرض طلبة العلم والعلماء على حد تعبير **أجيرون**، فمنهم من قتل ومنهم من هاجروا منهم من انزوى في دور العبادة والزوايا، الأمر الذي جعل الأمية ترتفع لمستويات غير مسبوقة بسبب سياسة التجهيل التي استمرت حتى الاستقلال رغم المدارس الفرنسية والتي وجدت أساسا لتعليم أبناء الكولون لا الجزائريين ـ إلا في نطاق ضيّق جدا ـ أما مؤسسة القضاء الإسلامي فقد امتدت إليها الآلة الاستعمارية التدميرية مبكرا بتهميش وظيفتها عبر عدة قرارات ومراسيم، فبدأ التدخل في شؤونها في 1834م عند صدور قرار يعطي الحق للمتقاضين الجزائريين باستئناف الأحكام الصادرة من القضاة المسلمين أمام مجالس الاستئناف الفرنسية، وهذا يعتبر تحدٍ صريح وواضح وخرق لاختصاصات القضاء الإسلامي، ثم توالت القرارات التي أسست لتنظيم القضاء الفرنسي في الجزائر على قاعدة إدماج القضاء الإسلامي في قضاء المتروبول نهائيا[17]، ثم توالت على القضاء الإسلامي القرارات ونزع

الصلاحيات من قضايا العقار والملكيات، إلى قضايا الجنح والجنايات...حتى أصبحت قاصرة في حدود النظر في الميراث والأحوال الشخصية فقط وذلك بصدور المراسيم ملكية(Ordonnances royales)في فبراير 1841 وسبتمبر1842م ومرسوم شهر سبتمبر 1885م.

3. المقاومة الفكرية و الثقافية:

من أبرز ما كان يميز الحياة الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني انتشار الطرق الصوفية ومبانيها التي أدت دورا دينيا مهما برز في ترسيخ تعاليم الإسلام وكانت فضاء للتربية والتعليم بل وفي ظروف تاريخية أخرى لعبت أدوارا سياسية وعسكرية، إلا أن كثيرا منها انحرفت عن نهجها السني الصحيح بسبب التخلّف والجمود الذي أصاب الأمة في أواخر العهد العثماني فابتعدت طقوسها عن المنهج الصحيح و أضحت ممارساتها وثنية لا علاقة لها بالإسلام كالمغالاة في شيوخ الطريقة والتجمعات والزردة وأفعال الدروشة والتبرّك بالأولياء والصالحين واتخاذ قبورهم مزارات...وغيرها، إلا أنه كان لها دور هام خلال فترة الاحتلال الفرنسي في حشد المقاومات الشعبية والثورات والانتفاضات فمعظم زعماء المقاومة كانوا شيوخ زوايا أو منتسبي الطريقة، فأدت دورا ثوريا كبيرا لكنها انهزمت واستسلمت، عملت الإدارة الاستعمارية على إيقاف الوظيفة الإيجابية للزوايا بسياسات مختلفة جمعت بين المراقبة والتشدد دون المهاجمة وبين أسلوب الاستمالة والاحتواء جراء عدة مصادمات معها، حيث تحكمت **بالأسلوب الأول** في بعض الطرق بالتحكم في مداخيلها المادية ومنع إعطائها الرخص لجمع أموال الزيارات ومراقبتها عن كثب، أما **الأسلوب الثاني** مارسته مع بعض الطرق ك**الطيبية والتيجانية** وبعض فروع **الرحمانية...**،من خلال رد الاعتبار لشيوخها ودعمها وعرض الوظائف عليهم والسماح لهم بجمع أموال الزيارات ومنحهم إقطاعات، وتزويج بعضهم بالفرنسيات، ومنحهم الأوسمة...وظهرت نتيجة هذه الاستمالة تدفق الدعم عليهم[18] من الإدارة الاستعمارية للتخفيف من حدة التمسّك بتعاليم الدين الصارمة في مهادنة العدو الفرنسي، ما نتج عنها الانتقائية والإيمان بالخرافات والدجل والشعوذة وصارت بالتالي أكثر قابلية لمفاتحات السلطة الاستعمارية، وبهذا أنهت وظيفة الزوايا من الحشد للمقاومة الشعبية والثورات كمؤسسات دينية وثقافية واجتماعية متحررة من الارتباط بالمستعمر وكفضاء للممانعة والمجابهة الثقافية والعسكرية، وصيّرتها لأكبر مبرر له

وللوضع الذي آلت إليه الجزائر بمقولات دينية وخطابات قدرية سلبية أو كما وصفه البعض خطابها« من خطاب مقاوم إلى خطاب مدجن مهادن تكثر فيه المفردات التي تتحدث عن المقدر والمكتوب وأشكال كثيرة من الشعوذة والدجل[19] » وتحوّل التراث الديني للزوايا من فقه الرباط والجهاد إلى التميمة والخرافة والدجل والدروشة والاستسلام، في حين بقيت السلطات الاستعمارية تغذي هذه الأفكار والسلوكيات والميول والاتجاهات المنحرفة وتشملها بالرعاية ممن باعوا ذمتهم للمستعمِر فصارت مخدرة للعقول والمقاومة، وحوصر الدّين الإسلامي وتمّ تجهيل الجزائريين به ليدخل المعطى الديني في هذه المرحلة وبوضوح تام في معادلة الصراع بمنطق سياسة كبت الإسلام ومظاهره حسب **ما يكل ويلس**، فاستخدمها الاستعمار كونها سياسة متممة وطبيعية لعملية الضمّ التي تعرضت لها الجزائر، فترجم ذلك عبر غلق وتهديم المساجد، مصادرة الأموال والأملاك الوقفية والخيرية، تجريف الجبانات وغلق الزوايا، منع ممارسة طقوس الإسلام وتعليمه بغلق مدارس التعليم القرآني وطرد الأئمة والمفتين والمعلمين أو قتلهم، ومراقبة وضبط الاحتفالات الدينية، منع الحج...، لكن اقتنعت الإدارة الفرنسية باستحالة اقتلاع الإسلام من جذوره رغم كل هذه الممارسات فعمدت إلى التحكّم الرسمي في الإسلام وذلك بإضعافه من خلال إيجاد رجال دين مسلمين مدربين في مدارسها، يمكن من خلالهم التحكم بالتعاليم الإسلامية في المساجد ومرتاديها[20]فخلصت لوسيلة نافذة من وسائل إفساد المجتمع وهو التحكم في الدين قصد التجهيل به لإفراغ الفرد المسلم الجزائري من عقيدته ومحتواه الشخصي وهويته بغية استيعابه وتوجيهه ثم إدماجه في منظومة القيم الثقافية المهزومة والتابعة للقيم الدينية الصليبية الفرنسية عبر خطوات ممنهجة، بدأت بالقضاء على المرجعيات الدينية وإلغاء منصب مشيخة الإسلام وإبطاله فلم يعد للجزائريين مرجعيتهم الدينية الإسلامية ـ سواء كانت مجسدة في مفتي الديار الجزائرية وهو شخص عالم أو هيئة علمية دينية عليا ـ وبالتالي تمت تصفية المجال الديني من العلماء وذوي الكفاءة والمسؤولية كالقضاة والمفتين والأئمة، فبدأ تدخلها القسري والتعسفي في الحياة الدينية للجزائريين والتحكم فيها واستبعاد وإضعاف اللغة العربية كونها الوعاء الثقافي الحامل للدين الإسلامي، وباعتبارها في خانة ووضعية المغلوب والمهزوم فإنها تقهقرت وضعفت وبضعفها وبتهميشها شاع التلوّث الأخلاقي في المجتمع العام، وانتشر شرب الخمر في

الطرقات وتعاطي البغاء والاعتداء على حرمة رمضان، وأكل لحم الخنزير ولحوم الحيوانات غير المذبوحة، فلم تعد تثير أي استنكار[21]، كون منظومة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المؤسسات المعنوية الأخلاقية الهامة تعطلت أو ضعفت عن أداء دور الرقابة والضبط داخل المجتمع بسبب غياب المرجعيات الدينية والفكرية والثقافية لأداء وظيفة الأمن الفكري والثقافي للأفراد، وهكذا فإن الاستعمار الفرنسي لم يدع تفصيلا من تفاصيل الحياة الدينية أو الثقافية إلا شمله وشغله بالتغيير، كما سعى أيضا لتغيير الفضاء الهندسي المعماري للمكان بطرق وأساليب عنيفة حتى يستتب له المكان وفق آليات وضرورات الاستعمار فأقدم على تدمير المساجد والزوايا والجوامع والأضرحة والمنازل والقصور ذي الطابع المعماري الفني الإسلامي المغاربي منذ أول يوم للاحتلال واستبدالها ببنايات ذي طابع معماري أوروبي مختلف، فحلّ المسرح والفندق والماخور والمخمرة(والعمارة بالشقق التي لم يعرفها المجتمع الجزائري من قبل)كرموز للثقافة الغالبة محل المسجد والزاوية والدكان والبيت العربي وزاحمت الكنائس المسيحية بصومعتها وأجراسها مآذن ومنارات المساجد والجوامع الإسلامية.

إن تأسيس (إبدال) نسق ثقافي وديني و روحي جديد خادم للاستعمار يتم بتنصير الشعب وفرنسته مستعملة في ذلك سلاح ذو كفاءة عالية وفعالية قصوى وهو سلاح الثقافة والتعليم،[22] لكونه الحل الدائم لبسط النفوذ والسيطرة سعيا لإدماجهم في منظومة الاستعمار الثقافية بأسلوب سلس وسلمي، أما أنجع الوسائل والوسائط المستخدمة لذلك هي الكنيسة والمدرسة كون ديمومة الحضور الاستعماري مرهون بالعمل على احتواء المجتمع الجزائري ثقافيا ودينيا والتواجد في كل مؤسساته جيلا عبر جيل، وعبّر عنه صراحة **ديفوكو**Charles de Foucault(1858-1916)عميد التبشير في الجزائر قائلا:"إن لم يتنصر المسلمون في ممتلكاتنا الاستعمارية بالتدرج والليونة...وإذا لم تصيّر تلك الشعوب فرنسية....فإنها ستخرجنا حتما من بلادها فالوسيلة الوحيدة التي نصيّرهم بها فرنسيين هي أن يصبحوا مسيحيين[23]باعتباره (التنصير) المدخل الفعّال والإستراتيجي لتحقيق النفاذ والتغلغل الاستعماري في البنى الثقافية ثم النسق العام للمجتمع الجزائري لتحويله، فتوالت بذلك عمليات الاستئصال بالتنصير منذ بدأ الغزو ونشرت المسيحية بين الجزائريين منذ **لويس بافيه** إلى **أنطوان دويوش** فالكاردينال **لافيجري**، وأنشأت لذلك عدة مؤسسات تبشيرية كمؤسسة **القديس أوغسطين، مؤسسات جمعية**

الآباء البيض، الأخوات البيض، جمعية الإخوة المسلحين في الصحراء...[24]ضف إلى ذلك فتح مجال للإرساليات التبشيرية وبناء الكنائس وتوجيه جهودها نحو العمل الخيري والخدماتي خاصة منه التعليمي والصحي قصد اجتذاب السكان والنفاذ لقلب الأسرة عن طريق الوصول للمرأة حتى تسهل عملية غرس العقيدة النصرانية ما أدت لإنتاج بعض النخب المثقفة بالثقافة الغربية المتعاطفة مع التوجهات الفرنسية المتأثرة بتكوينها الثقافي و الفكري و اللغوي و برواسب هذا المشروع.

لما كان المستوى الثاني للغزو الاستعماري الأهم سيتحقق عن طريق المدرسة وفق تعبير وزير التعليم **ألفريد رامبو** فإن تصفية الجهاز التعليمي التقليدي الإسلامي كان خطوة متممة ومنهجية مقننة كونه أداة ممانعة ثقافية عصيبة ومنفذ للإعادة تشكيل الهوية الحضارية للأجيال والتي ضرب الاستعمار مدخلاتها وروافدها المادية والمعنوية الأساسية لتبديل النسق التعليمي بالنصراني ثم العلماني الجديد و وضع أسس مجال ثقافي مغاير يتماشى وطموحات السياسة الاستعمارية ومصالحها في البلاد...واستكمال استعمار الفكر والثقافة لإتمام عملية غزو الأدمغة[25]والأرواح والمعتقد، بيد أنّ هذا التعليم الموجه لأبناء الجزائر بقي محدودا كمًا وكيفاً غرضه تكوين متعاملين يلبون احتياجات الإدارة الفرنسية، رغم إصلاحات **جول فيري** سنة 1883م التي أقرّت مبادئ إلزامية ومجانية ولائكيه التعليم فبقي بعيد المنال للأهالي لاعتبارين هامين:

- **الأول:**تمثل في المقاومة الثقافية والمقاطعة والحذر الذي أبداه الشعب تجاه هذا التعليم الفرنسي كون الانخراط في مثل هذا التعليم خلال تلك الفترة كان يعدّ خيانة للمقاومة، لهذا بقيت المدارس الفرنسية تشكو ندرة روادها لتخوّف الجزائريين على أبنائهم من هذا الوسط الجديد وما يزرعه في نفوسهم من قيّم فرنسية وتنصّرهم لتجنّسهم ثم تدمجهم.

- **الثاني:**هو مقاومة الكولون لتعميم تعليم أهالي الجزائريون كون تعليمهم تهديد لمصالح الاستيطان وهذا يعني تنويرهم وتوعيتهم...[26]، فهذا التعليم لم يمس سوى فئات قليلة من أبناء الطبقة البرجوازية التقليدية المتكونة من أبناء القيّاد و الباشغوات وكبار التجّار والموظفين في الإدارة الاستعمارية، الذين تربطهم مع سلطات الاحتلال مطامع ومصالح، في حين كانت هناك فئات آلت للانفصال عن هذا النوع من التعليم وبقيت متمسكة بما تبقى من الأطر التعليمية التقليدية التي نجت من سياسة التدمير.

إن هذا الموقف المزدوج من التعليم الفرنسي أنتج لنا فيما بعد انقساما في مستوى النخبة المتعلمة المثقفة و ثنائية متناقضة بين نخبة متخرجة من المدارس الفرنسية والمتشربة والمنطبعة بالثقافة الغربية واللغة الفرنسية والتي كانت منفصلة معنويا وفكريا عن الطبقات الأخرى داخل المجتمع[27]وفي المقابل النخبة المتخرجة من الزوايا والمدارس والمعاهد التقليدية الإسلامية ومدارس الإصلاح ومراكز التعليم العربية المنتشرة آنذاك مثل(الزيتونة، القرويين، الأزهر...)وهي الأكثر تعبيرا عن مكونات الهوية الوطنية الجزائرية ومعها بدأت تتشكّل بدايات تيارات الحركة الوطنية والإصلاحية الجزائرية.

4. الحركة الإصلاحية الإسلامية الجزائرية:

اتخذ المجتمع الجزائري عدة استراتيجيات للمقاومة والممانعة الثقافية والسياسية والاحتجاج على الهدم الثقافي والفكري الذي

صاحب الغزو العسكري، فبرز عبر الحركة الوطنية والإصلاحية الإسلامية الجزائرية للرد على أخطر مرحلة والتي جاءت كرد فعل للمرة الثانية منذ1880م وما بعدها فاستعباد العقول أخطر من استلاب الأراضي، لذلك بدأ الرد الفعل الطبيعي على المحو والمسخ لشخصية وهوية الفرد الجزائري لمكوناته الأساسية من دين ولغة وثقافة بعدما وُئِدت مختلف مؤسساته وتنظيماته الاجتماعية والسياسية والثقافية التقليدية التي كانت تعبّر عنه و تضمن حمايته ماديا ومعنويا وتحصنّه ذاتيا وشخصيا وتوّفر أمنه فكريا وثقافيا، وبالتالي ستكون هذه الفترة من تاريخ الجزائر بداية لتأسيس الأرضية الصحيحة والسليمة للانطلاق بالنضال المسلح والثورة التحريرية وهي مقاومة من نوع آخر:إنها **المقاومة الثقافية والإصلاحية** التي شملت كافة المجالات وجاءت رداً لسياسات واستراتيجيات الهدم الاستعمارية الفرنسية على الفرد الجزائري، وهي شكل جديد من الممانعة اتخذها المجتمع لإعادة بعث مؤسساته المنهارة ومحاولة فرض وضع اجتماعي سليم يبحث فيه عن توازن أنساقه ويعيد شبكة العلاقات التي تعبّر عن ذاته وهويته الأصيلة قصد إزالة التوتر الحاصل في بناه الأساسية.

ونحن بصدد تتبع الحركة الإصلاحية التي كانت إلى جانب النخبة الحداثية كونها أدت دورا بارزا في ساحة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين باعتباره تيّارا لم يكن استثناءا بالجزائر بل عمّ كل أنحاء العالم الإسلامي في شكل دعوات وجهود لمصلحين وعلماء عبر أقطار العالم

الإسلامي ك: **محمد بن عبد الوهاب، جمال الدّين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا**...،ساعين لتجديد الدين الإسلامي والنهضة بالأمة الإسلامية للرجوع بها للمصادر والمنابع الإسلامية الأولى الصحيحة(الكتاب والسنّة)ووجدت هذه الدعوة صداها في الجزائر عبر الصحف المشرقية عامة و التونسية الإصلاحية خاصة التي كانت تصل للجزائر وتطلّع عليها النخبة الإصلاحية الجزائرية، فالحركة الإصلاحية الإسلامية دعوة فكرية عملت على صياغة مشروع فكري إصلاحي يتناول النوازل والرزايا التي ألمّت بمجتمعات العالم الإسلامي على وقع الاستعمار البريطاني والفرنسي بدراسة الأوضاع وتحليل مختلف المشاكل والظواهر المترتبة عنه واقتراح الحلول لتصحيح العطب والخلل والاضطراب الحاصل في الهياكل والبنى الاجتماعية والتمزق الذي عرفه النسيج الاجتماعي العام ليتم إخراجه من هاوية سقوطه الحضاري والعمل على إعادته لخط أحداث التاريخ ودفعه للاجتهاد والتجديد والإبداع عبر تحرير وعيه من الخرافة والدجل والتقليد الأعمى وتكرار الحواشي وتكرار الشروح والمختصرات؛ وهي مرحلة هامة عبّرت عن مدى تقهقر وتراجع المسلمين بسبب" الإرهاب الثقافي(الحاصل جراء) محاربة اللسان العربي ومنع الشعب الجزائري من تعليم اللغة العربية لأبنائه في مختلف المدارس والزوايا المنتشرة"[28]آنذاك، لتتحول المقاومة المسلحة إلى-مقاومة اللغة والقلم - مقاومة ثقافية أطلقتها النخبة كأولى أعمال التنوير الفكري والإصلاح الديني و بادر به مثقفون وعلماء ك: **الشيخ صلاح بن المهنا القلي** و **عبد الحليم بن سماية** و**عبد القادر المجاوي** و**المولود بن الموهوب** و**السعيد بن زكري، الشيخ عبد المجيد بن عبد الله بوجمعة، حمدان الونيسي، ابن العابد ،محمد بن خوجة**..." وغيرهم ومن أمثال الشبان الجزائريين:**محمد بن الرحال، الطيّب مرسلي** و**أحمد بن بريهمات**...وغيرهم، تجلت في أعمال فردية ومحلية ثم تسلحت هذه النخبة المثقفة بوسائل عمل جديدة كونها احتكت خارج البلاد بأفكار وأساليب نضالية متنوعة مستوحاة من الحضارة الغربية فأسس كل واحد منهم الصحافة باللغة العربية أو الفرنسية(حسب تكوينهم)لاستعمالها في تكوين الرأي العام وتوعية وتثقيف الشعب والمطالبة بحقوقهم بكل أنواع وأساليب الممانعة السلبية والإيجابية، التي كانت بداية بالنشاط السياسي للقضاء على الجمود السياسي في أمتهم وكسر الإمتثالية الدينية والتبعية الثقافية السلبية؛ قامت به عدة شخصيات منها من طالب بالمساواة **كالأمير خالد**، ومنهم من طالب بالاندماج مثل: **ابن**

جلول و**فرحات عباس** و من طالب بالاستقلال: **مصالي الحاج** ومن طالب بالإصلاح مثل **الشيخ ابن باديس**، ومنهم من فضّل الهجرة للمشرق العربي وبعضهم انغلق على نفسه ضمن التيّار الصوفي الطرقي الغامض وبعضهم أخذه تيّار الولاء للاستعمار في حين ناضل آخرون لإيصال أصواتهم لسلطة الاستعمار متبعين أساليب متاحة للتعبير والحوار" بمقاومة الحوار في مقابل مقاومة الرفض"[29]عن طريق وسائل وأدوات العمل الاجتماعي كالمظاهرات وتقديم العرائض وإرسال الوفود، المشاركة في الانتخابات، الكتابة وإصدار الصحف أو تقديم الشكاوي والعرائض...قصد رفع المظالم والمطالبة بحقوق أوسع للأهالي، لذلك يمكن النظر للنشاط الحركي الإصلاحي كنتيجة عامة وهامة للارتجاج الاجتماعي العام؛ إنّ هذه النخب الجزائرية المتخرجة من بقايا المؤسسات التعليمية التقليدية التي نجت من عملية الغزو وبعدما استكملت تعليمها في بعض المراكز الثقافية الإسلامية بالزيتونة والأزهر والقرويين ومكة والمدينة المنورة والقدس ودمشق...أو تلك التي أتاح لها وضعها الاجتماعي الالتحاق بالمدارس الفرنكو-إسلامية أو المدارس الفرنسية والتي خدمت في أجهزة إدارة الاستعمار(الإدارة أو الجيش...) تأثرت كلها بالأحداث الدولية الإسلامية والأوروبية آنذاك كأحداث تركيا1908م وتونس(1912-1911) والحرب العالمية الأولى وتجنيد الشباب الجزائري المسلم للخدمة العسكرية الإجبارية وهجرة العديد من الشباب الجزائري خلال هذه الفترة للمشرق أو تونس مؤقتا ثم عودتهم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بذهنية وعقلية حاشدة من المشرق العربي وبأفكار تحريرية وإصلاحية ونهضوية جاءت معها بذرة الحركة الإصلاحية إلى الجزائر[30] فعملت على أن تقود ساحة النضال الديني الإصلاحي لتبعث الوعي بأسئلة الهوية والشخصية الوطنية للنهضة وإشكالية السعي للتقدم عن طريق المطالبة بالحقوق وتحسين أوضاع الجزائريين المسلمين.

إن هذه الساحة التعليمية باختلاف مؤسساتها التقليدية والفرنسية أنتجت لنا أنماطا جديدة من الأفكار والإيديولوجيات ما ترتب عنها نخب مثقفة متباينة الأفكار والرؤى"ظهرت فيها أشكالا جديدة من الصراع والتي ستكون أشكالا للحركة الوطنية"[31]فيما بعد فقهوا واقعهم ونادوا للعمل على محاربة الجهل والأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقي واليقظة وتجديد الدين الإسلامي وإعداد وإمداد الأمة بالعلماء والمصلحين والأئمة والمدرسين لإنتاج جيل الإصلاح والنهضة الدينية ،الثقافية

والتعليمية، فكانوا خط الدفاع الخلفي للبنية الثقافية فاتحين بذلك قناة للعبور نحو القرن العشرين والخروج بشخصية وهوية المجتمع الجزائري من الركود والتأخير والانحطاط الحضاري الذي أحدثه وتعمّده الاستعمار الفرنسي وإيقاظه من غفوته للتكيّف مع المعطيات المستجدة في العالم والبحث عن التوازن لاستعادة الاستقرار وإدراك الخلل الحاصل في البنى الاجتماعية بالإصلاح، فبدأ بثّ أفكار الحركة الإصلاحية عبر نشاطاتهم الثقافية والتعليمية والدعوية مع جملة من العلماء والدعاة ومن سار على دربهم ونهجهم، فكان الجهد الإصلاحي الفردي قد تجمّع في فكر رموزه التقليديين وسيتجمع حول رموز جدد من العلماء الشباب الذين سافروا للمشرق وعملوا أو درسوا هناك ثم عادوا للجزائر وقد تأثروا بالأفكار السلفية والنهضوية، إلاّ أن هذه الأعمال الفردية ستنتظم عبر العمل الاجتماعي المنظم تحت شكل جمعوي أو حزبي ومؤسساتي حركي منظم على المستوى الوطني وخاصة بعد صدرو قانون الجمعيات الذي فتح المجال للتعبير للأهالي(قانون 04 فبراير1919)و سعى بعضهم لإنشاء مدارس للتعليم العربي الحر؛ والذي يمكن ملاحظته في هذه الفترة بروز حركة العمل الجمعوي والثقافي بقوة كإلقاء محاضرات والكتابة والتأليف والشعر وإصدار الصحف باللغتين العربية والفرنسية للتعريف بقضاياهم والدفاع عنها مثل:**الأمة الجمهورية الجزائرية، الشهاب، الشعب**...وطبع الأعمال التراثية، فتأسست العديد من النوادي(كنادي ترقي)والمنظمات والجمعيات الثقافية والعلمية والرياضية عبر مختلف مناطق الوطن مثل: الجمعية التوفيقية والراشدية في العاصمة، ونادي صالح باي في قسنطينة ونادي الهلال والتقدم في عنابة ووداية العلوم العصرية في خنشلة...[32]و غيرها، أدت أدوارا تعليمية تربوية تثقيفية والتوعية هامة جدا، غير أن هذه النخب المثقفة باختلافها كانت تعبّر عن الواقع الثقافي لمنظومة تعليم تلك الفترة، وما أنتجته عكس مشهدا انقساميا متباينا من حيث أصولها الاجتماعية ومرجعيتها الفكرية وخلفيتها اللغوية والإيديولوجية وتصوّرها للتغيير والإصلاح الذي ينبغي انتهاجه والدرب التي عليهم سلوكها لتغيير الوضع الاستعماري في البلاد ،كون هذه النخب المثقفة لم يكن لها موقف موحد من القضايا المطروحة في الساحة الجزائرية آنذاك مثل(التجنيد الإجباري، قضية التجنيس والإدماج، وضع اللغة العربية، المرابطية، المشاركة السياسية والأحزاب...)فيمكننا عبره ملاحظة استقطابا واختلافا يصل لحد التناقض ما أدى لتكوّن تياران كبيران، أثّرا فيما بعد على كل الحياة

الثقافية والسياسية الجزائرية خلال كل الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين: تيّار من ذوي التكوين الفرنسي مؤيد لفكر لتغريب المجتمع الجزائري عبر الثقافة الفرنسية وما يصطلح عليه مؤرخوا هذه الفترة بكتلة الشبان وجماعة النخبة أو النخبة الحداثية، في مقابل التيار الإصلاحي الذي يناضل من أجل العودة للمنابع الإسلامية وتجديد وبعث اللغة والثقافة العربية في الجزائر[33] وهو ما عرف بكتلة المحافظين أو العلماء أو النخبة التقليدية، فبذلك يكون هذا المشهد الانقسامي داخل النسق الثقافي الجزائري يبرز أمامنا بشكل جليّ وواضح كنتائج أولى وأولية للتعديلات والتغييرات التي أدخلها واستحدثها قسرا الاستعمار الفرنسي للهياكل والمؤسسات والعناصر الاجتماعية والثقافية المختلفة للمجتمع الجزائري والتي ستستمر معه وتساهم في رسم معالم الأحداث والقضايا التاريخية الهامة للأمة، وهذا لكون الأطر المرجعية التقليدية تأثرت بشكل كبير وواضح وراحت تخلي مكانها لقيم ثقافية دخيلة مستمدة من إطار ثقافي غربي فرنسي لدى شريحة واسعة من نخبة تلك الفترة التاريخية وتتوسّع مساحة العزوف والابتعاد عن النسق التقليدي عبر الجيل التالي لمن يمكن تسميتهم بالحداثيين، في المقابل نخبة بقيت وفيّة لموروثها الحضاري والثقافي ومدافعة عنه وهذا ما سيؤثر في كل ذلك على أرضية المطالب التي ناضل ونادى من أجلها كل هؤلاء، فهي مرحلة مخاض هامة تشكلت في ظلها معالم خريطة التصوّرات الفكرية وقاعدة المرجعيات الدينية والذهنية والإيديولوجية والحزبية التي سطّرت معالم كل الحركة الوطنية والإصلاحية حتى يومنا هذا، وفي هذا الصدد يقول **أبو القاسم سعد الله**:"تكاد جميع الاتجاهات السياسية والإيديولوجية الموجودة في الجزائر اليوم تعود إلى العشرينيات من هذا القرن. فقد ظهرت جماعات وأحزاب مختلفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كان مقدر لها أن تقود الحركة الوطنية إلى انفصالها النهائي عن فرنسا سنة 1954م حقا أن الزعماء قد ماتوا أو غيّروا من آرائهم ومناوراتهم ولكن الإيديولوجيات الأساسية التي ظهرت قد بقيت تقريبا هي نفسها إلى الوقت الحاضر"[34].فكانت سنوات العشرينات من القرن الماضي الانطلاقة الفعلية والحقيقية للفكرة الإصلاحية في شكلها الفردي بداية ثم تنظمها في شكلها الجماعي والحركي المؤطر وهذا الوعي كان بمثابة صحوة وعلامة على تطوّر حاسم للرأي العام الإسلامي في الجزائر ونقطة انطلاق لمخاض الإيديولوجية التي تميزت بها الحياة الإسلامية في الجزائر خاصة بعد تأسيس **جمعية الإصلاح** في الجنوب

بقيادة **إبراهيم بيوض** و**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين** بقيادة **الشيخ عبد الحميد بن باديس** في 1931م ليقتنع العلماء بضرورة توحيد جهود الإصلاح والانتقال من العمل الفردي للعمل الجماعي أكثر فاعلية وتأطير وتنظيم، فكانت الجمعية بذلك التيار التنظيمي والحركي العلمي الديني الذي اجتمعت فيه الجهود الفردية التي لم تنقطع منذ أواخر القرن التاسع عشر مع المقاومات الشعبية الجزائرية المسلحة والتي أسميناها بالمقاومة الثقافية لتكثّف نشاطها على أيدي الذين تربوا و تتلمذوا لدى روّاد العمل الإصلاحي الأوائل ثم تعرف انتظامها وتوحدها، وبذلك تعد فترة ما بين الحربين العالميتين مرحلة تحوّل كبير في تاريخ الحركة الوطنية والإصلاحية تجسّد في الصحافة الجزائرية التي عمدت لتنظيم وعي الجماهير واتسمت بالنضج الفكري للنخبة الجزائرية خاصة الصحافة الناطقة باللغة العربية وكانت السبيل الفعّال والناجع لتأصيل وتثبيت مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية[35]فنشطت جمعية العلماء المسلمين عبر الصحافة لإدراكها أهميتها ودورها في تبليغ وتوجيه الرأي العام لمختلف قضايا الأمة المطروحة آنذاك وترسيخ الوعي لدى الجزائريين بأصالة قيمهم وتقاليدهم ودينهم.

5. **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:**

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم تشأ أن تكون حزبا سياسيا يضاف لقائمة الأحزاب السياسية الموجودة آنذاك على الساحة، كون اختيارها للعمل الثقافي والديني الدعوي هو السبيل الأمثل والأنجع والمدخل الأساسي وركيزة هامة لتعبئة المجتمع الجزائري ضد المشروع الثقافي الفرنسي الاستعماري لفرنسة وإدماج وتنصير الجزائريين، خاصة بعد الاحتفالات المئوية لاحتلال الجزائر الذي أثار حفيظة الجزائريين وخاصة العلماء منهم كونها عبّرت عن تأبّد الاستعمار في أرض الجزائر ولم يكن هناك سبيل أمثل من ردّ للاستعمار الثقافي إلا بالمقاومة الثقافية أولاً وساهم المناخ العام بالنسبة للفرنسيين موسوما بالانفراج اتجاه الأهالي ما ترتب عنه تليين للسياسة الأهلية، وأبدوا مؤسسي الجمعية مهارة بسعيهم لجلب الإدارة لصالحهم قبل التماس الرخص الضرورية وبأنها جمعية دينية صِرفة، لأجل ذلك نصّ ميثاقها التأسيسي "بأن نشاطها إرشادي تهذيبي هدفه محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه الشرع وينكره العقل أما وسائلها في تحقيق ذلك فهي فتح المراكز والنوادي والمدارس الحرة"[36]. تأسست في الجزائر يوم الثلاثاء 17 ذو الجحة1349 هـ

الموافق لـ 5 ماي 1931م بنادي الترقي من طرف هيئة مشكلة من أشخاص حياديين ينتمون للنادي، أعلنوا أن الجمعية دينية تهذيبية تسعى لخدمة الدين والمجتمع، لا تتدخل في السياسة ولا تشتغل بها، فانتخبوا مجلسا إداريا للجمعية يتكون من ثلاثة عشر عضوا برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي لم يحضر إلاّ في الأخير وباستدعاء وكان انتخابه غيابيا[37]وحتى يسهل الإشراف على متابعة العمل الإصلاحي أول بأول، وتنشيط العمل الدعوي والتربوي الذي يقدّم في المدارس العربية الحرة التي كانت تعرف انتشارها في الوطن، كلّف الإمام عبد الحميد بن باديس باقتراح من الجمعية الشيخ الطيب العقبي بأن يتولى الإشراف على العمل الذي يجري في العاصمة وما جاورها تحت إشرافه المباشر وعبد الحميد بن باديس بقسنطينة وما جاورها في الشرق الجزائري والشيخ البشير الإبراهيمي بمنطقة الغرب الجزائري، وهكذا تقاسم هؤلاء العمل في القطر كله بتنظيم وتنسيق واستمر العمل الإصلاحي والجهد التعليمي عبر مختلف الشُعب المنتشرة في كامل تراب الوطن رغم كل العراقيل والاضطهاد الذي كان العلماء والمعلمون عرضة له؛ تشكّل مجلس الجمعية على النحو التالي:

1-الرئيس: عبد الحميد بن باديس **2-نائب الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي**

3-الكاتب العام: محمد الأمين العمودي **4-نائب الكاتب العام: الطيب العقبي**

5-أمين المال: مبارك الميلي **6-نائب أمين المال: إبراهيم بيوض**

<u>الأعضاء المستشارين:</u>

7-المولود الحافظي **8-الطيب المهاجي.**

9-**مولاي بن الشريف.** **10-السعيد اليجري**

11-حسن الطرابلسي **12-عبد القادر القاسمي.**

13-عبد الفضيل اليراتني.

و تمثلت **أهداف جمعية العلماء** باختصار في:

1- إصلاح عقيدة الشعب الجزائري، وتنقيتها من الخرافات والبدع وتطهيرها من مظاهر التخاذل والتواكل التي كانت تغذيها مختلف الطرق الصوفية المنحرفة.

2- محاربة الجهل بتثقيف العقول، والرجوع بها للقرآن والسنة الصحيحة عبر وسائل العملية التعليمية التربوية.

3- الدفاع والمحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، بمقاومة سياسة التنصير والفرنسة التي اتخذتها سياسة الاستعمار.

4- العمل على ترقية اللغة العربية التي حاربها الاستعمار الفرنسي وتبليغ رسالة الإسلام بمفهومه الصحيح ومنهجه القويم للنهوض.

6. **جمعية العلماء ووسائل واستراتيجيات الإصلاح:**

اعتمدت جمعية العلماء على عدة وسائل وأدوات لأداء دورها في تفعيل جهود الإصلاح و إيصال رسالتها للمجتمع بكل ما كان ممكنا ومتاحا من وسائط الدعاية والتوجيه لكسر الجمود الفكري والثقافي الذي خيّم على الجماهير لعدة عقود، فشكّل هدفها الإستراتيجي تصفية الفضاء الثقافي والعقدي من القيم الشركية و البدعية السلبية المدمرة لعقيدة المجتمع وإحلال محلها العقيدة والمذهب الإسلامي الصحيح الإصلاحي الذي يساهم في تقدّم الأمة الجزائرية بداية بتأسيس فضاء ثقافي جديد يعيد للفرد عقيدته الصحيحة وفق منهج الكتاب والسنة النبوية ويُوجه المجتمع لمقتضيات العصر والسير لمستقبل متقدم مزدهر عبر تحرير تعليم اللغة العربية وإعطائها مكانتها بتأسيس المدارس العربية الحرة لتعليمها والنوادي والصحافة العربية وإعادة بعث الوقف الإسلامي الخيري الذي كان يغذي الحياة الثقافية الإسلامية، وإقامة الندوات والملتقيات وإلقاء المحاضرات وتكثيف الدروس....فتح النوادي الثقافية، العلمية والرياضية.

7. **صحافة جمعية العلماء (جريدة البصائر) نموذجا:**

ابتداء من سنة1925م عرف التيار الإصلاحي عدة جرائد ومجلات نشط فيها الفكر الإصلاحي للجماهير بداية مع **جريدة المنتقد** و **الشهاب** لـ **عبد الحميد بن باديس،** ثم تأسست صحافة جمعية العلماء المسلمين بإصدار قرار لها سنة1933م، وأصدرت مجموعة من الصحف ك**الشريعة المحمدية** و **السنة النبوية** و**الصراط السوي، السنة النبوية** و **الجحيم، الشريعة، الصراط السوي** التي اهتمت بشؤون الأمة الجزائرية والعربية عامة وبشمال إفريقيا بصفة خاصة، وكانت تسعى لإحياء اللغة العربية وحاربت عن طريقها صحافة الطرق الصوفية المنحرفة والمهاجمة لمنهجها، إلاّ أن الإدارة الاستعمارية كانت توقف كل جريدة تشكّ في لهجتها أو اتجاهها إلى أن ظهرت **البصائر** على مرتين: السلسلة الأولى صدرت ما بين(1935م-1939م) أما السلسلة الثانية فقد

ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ما بين(1947م-1956)حيث اغتنمت جمعية علماء المسلمين "فرصة رحيل **جان ميرانت** عن الولاية العامة المعروف بنزعته المعادية للإصلاح، ليتصلوا بالمدير الجديد **ميو miot** وعبّروا عن أهداف جمعيتهم وهو العمل على تعليم الشعب لغته ودينه، وابتعادهم كليا عن السياسة"[38]و طلع عددها الأول في 27 ديسمبر 1935م حيث أوكلت جمعية العلماء المسلمين إدارتها ورئاسة تحريرها في البداية للشيخ **الطيب العقبي**، وصاحب الامتياز **محمد خير الدين**،كان شعارها الآية القرآنية:« **قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعلها وما أنا عليكم بحفيظ**[39]» كانت تطبع في أول أمرها بالعاصمة بالمطبعة العربية التي يملكها«أبو اليقظان أحد أعضاء إدارة جمعية العلماء المسلمين في ذلك الوقت، ذات حجم متوسط (28×40سم) من ثماني صفحات، تحمل عدة مواضيع مختلفة، أدبية، دينية، اجتماعية، سياسية...[40]» . فشهدت فترة ما بين الحربين العالميتين بروز نشاط الحركة الإصلاحية وتصدّرتها جمعية العلماء خاصة عبر صحيفتها **البصائر** فتكثّف الإنتاج الفكري والأدبي لدى أعلام جمعية العلماء وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس وجريدته الشهاب كما كان له حضور قوّي وبارز في جريدة البصائر عبّر فيها عن فلسفته ورؤاه الفكرية والدينية والإيديولوجية ومنهجه في الإصلاح و فتاويه في قضايا هامة للأمة الجزائرية بخصوص التجنيس والتجنيد الإجباري والزواج بالكتابيات ...،كما نجد مشاركة هامة وفعّالة وبأسلوب لافت لإصلاحيين من دول مختلفة من العالم العربي والإسلامي ما يظهر لنا مدى لحمة العالمين المغاربي والإسلامي في هذه الفترة من التاريخ، فعرفت الساحة الأدبية والصحفية إنتاجا أدبيا واجتماعيا فكريا ثقافيا، وتربويا...من أمثال: **محمد الطاهر بن عاشور** من تونس و **محمد علال الفاسي** من المغرب ومفتي الأزهر من مصر، وسوريا...وغيرهم من البلاد العربية والإسلامية، ما يعطينا صورة بسيطة عن التوجه الإيديولوجي للخطاب الإصلاحي الموجه للأمة الجزائرية والعربية الإسلامية، والجدول التالي سيبين لنا أهم الموضوعات التفصيلية الصادرة التي تناولتها جريدة البصائر بالعناية والطرح والتحليل والتبيان وفق معدل تكرار هذه المقالات لكل فئة من فئات التحليل المختارة في دراسة تحليل محتوى للجريدة في سنتها الأولى فقط عبر 50عدد.

جدول رقم(01) النسب المؤوية لموضوعات أعداد جريدة البصائر لـ 50 عدد خلال السنة الأولى.

المحاور		عدد المقالات			النسبة المئوية
		ت	%		
المسائل الدينية العقدية الإسلامية	المواضيع الوطنية	94	%24.35	131	%33.93
	المواضيع الدولية	24	%06.21		
	الفتاوى	13	%03.36		
المسائل الفكرية والثقافية	المواضيع الوطنية	83	%21.50	118	%30.56
	المواضيع الدولية	35	%09.06		
المسائل السياسية	المواضيع الوطنية	62	%16.06	86	%22.27
	المواضيع الدولية	24	%06.21		
المسائل الاجتماعية والاقتصادية		20			%05.18
المسائل الأخلاقية والتربوية		35			%09.67
المجموع		386			%100

من خلال الجدول يمكننا ملاحظة أهم المواضيع للأعداد الخمسين من جريدة البصائر في السنة الأولى موزعة على أغراض متعددة تتنوع ما بين العقدي الديني والفكري والثقافي والسياسي، الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والتربوي ببعديه الوطني والدولي، وللإشارة هي أغراض جاءت في الجريدة أساسا لخدمة أهداف جمعية العلماء المسلمين

بحسب ما صرحت به عن كونها جريدة ثقافية تهذيبية دينية هدفها التعريف بحقيقة الدين الإسلامي ونشر قيمه وتعاليمه السامية وتعليم اللغة العربية.

جاءت عملية توزيع الموضوعات على المحاور المختارة كفئات للتحليل لتكشف عن أكبر نسبة من هذه الموضوعات هي المواضيع التي تعالج المسائل الدينية العقدية الإسلامية ببعديها الوطني والدولي، فقدرت أعلى نسبة لهاب 33.93% ثم انقسمت وتنوعت المسائل الدينية بدورها ما بين وطنية عرفت نسبة 24.35% في المركز الأول تليها المواضيع الدينية العقدية الدولية بـ06.21% ثم الفتاوى بـ03.36%. أما فيما يتعلق بالمسائل الثقافية والفكرية فقدرت نسبتها بـ30.56%والتي انقسمت بدورها لشقين هامين :الوطنية التي تناولتها الجريدة بنسبة21.50% ثم المسائل والمواضيع الفكرية الثقافية الدولية سجلت نسبة09.06%.

كما نجد حضور المسائل السياسية التي شغلت حيّزا نسبته22.27% من جريدة البصائر(في سنتها الأولى) تفاوتت ما بين مسائل وطنية قدّرت بـ 16.06% ومواضيع دولية بنسبة 06.21% من مجموع المقالات.

فيما يتعلق بالمسائل الأخلاقية و التربوية فقد ظهرت بنسبة تقدر بـ09.67%، أما المواضيع والمسائل الاجتماعية والاقتصادية سجلت أدني نسبة بـ 05.18% من المجموع الكلي للمقالات المنشورة للصحيفة.

لقد ألمحت لنا هذه النسب والأرقام تركيز **جريدة البصائر** في سنتها الأولى- وبأعدادها الخمسين- على المسائل والمواضيع **الدينية العقدية الإسلامية** وهذا أمر طبيعي كونها جريدة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولسان حالها، والتي ذكرت أنها تسعى عبر أهدافها للتثقيف والتربية والتهذيب والتعريف بأصول الدين الإسلامي وخاصة العقيدة الإسلامية الصحيحة، فبرزت البصائر كمنبر هاما لفتاوى مهمة للأمة الجزائرية ومن أكبر وأهم وأكثر الصحف الجزائرية شهرة وانتشارا عملت على تعليم الشعب لغته ودينه في داخل وخارج الوطن، واتجه كتّابها وجهة فكرية تعطي للهمّ الديني العقدي والفكري والثقافي أولوية هامة.

ومن جهة أخرى سجلنا حضور المواضيع **السياسية الدولية والوطنية** في الجريدة على الرغم من الطابع الديني في تعبيرها، حيث تعاملت بأسلوب تكتيكي ماهر، فسارت حسب متطلبات المرحلة بتناولها للمسائل **السياسية الوطنية والدولية** وفق ماتقتضيه

الحاجة والمرحلة والتزامات الجمعية بعدم الخوض في السياسة وهو التزام فرضته الجمعية على نفسها لكنها أُرغمت على دخول هذه المواضيع كونها جاءت كرد فعل لبعض المسائل والأقاويل التي طالتها أو طالت أعضاءها فاحتلت بذلك هذه المسائل المرتبة الثالثة في الجريدة؛ ولعل العامل الرئيسي في ذلك هو توجيه رسالة شديدة للأطراف المعادية لها من جهة على لسان رئيسها أو أحد أعضاء الجمعية، ومن جهة ثانية هو التنديد بالمؤامرات التي حيكت ضدها وما نتج عنها من أحداث هامة (كحادثة اغتيال الشيخ كحول واتهام الشيخ الطيب العقبي باغتياله) وقرارات الإدارة الاستعمارية بإغلاق المساجد الحرّة التابعة للجمعية ومنع التدريس العربي الحر بمدارسها...

إن تطوّر الأحداث التي ميزت الجزائر والحركة الإصلاحية الجزائرية في فترات مبكرة في منتصف الثلاثينات **وبداية تشكل الوعي الإصلاحي والسياسي وتنظيمه وتفعيله وتوحيده لدى الإصلاحيين والنخبة المثقفة السياسية** والعمل على ضرورة التهيئة الجماهيرية والاجتماعية والسياسية جاء لبناء الشخصية الوطنية العربية الإسلامية ثم العمل على بث الوعي السياسي والديني للتخلص من الاستعمار والمطالبة بالاستقلال؛ على الرغم من الأسلوب الهادئ والرصين واللين والمهادن اتجاه الإدارة الاستعمارية في محاولة لتمرير أهدافها الإصلاحية من جهة وأن لا تفتح على نفسها كل الجبهات من جهة أخرى إلا أنها دخلت المجال السياسي من بابه الواسع نظرا لطبيعة المواضيع المطروحة والملحة في الساحة الوطنية، ويظهر هذا التوجّه خاصة لدى دعوتها كل أطراف الحركة الوطنية لعقد المؤتمر الإسلامي 1935م والنتائج التي خرجت بها من المؤتمر وسعيها الحثيث لتحقيق مطالب الجزائريين لتحسين أوضاعهم؛ فاعتمدت المرحلية والتدرج في معالجة المواضيع والمطالبة بالحقوق فهي ترى أنّ تنقية العقيدة للفرد الجزائري المسلم من البدع والضلالات التي نشرتها الطرقية الصوفية المنحرفة قضية مصيرية وجهد هام، لذا كان اهتمامها منصبا على الجبهة الداخلية في التصدي للانحراف والإنزلاقات العقدية الخطيرة وتدهوّر الديانة الإسلامية في الجزائر وغربتها لدى أفراده تصدّر أولوياتها.

ثم إن الموضوعات **والمسائل الفكرية والثقافية** تجلت في مختلف عناوينها وتمحورت للتأكيد أنّ الإسلام دين للحضارة والتقدم والرقي وتتمه لمكارم الأخلاق من خلال إبراز إسهاماتها الحضارية الإسلامية التي قدمتها الأمة الإسلامية طيلة عقود للبشرية جمعاء

في مختلف الميادين والمجالات العلمية والدينية العقدية والفكرية و التنظيرية والأدبية....ثم الإشادة بدور المسلمين كعنصر منتج وفاعل في الحضارة الإسلامية وإبراز أهم التأثيرات الإسلامية على التطور التقني الغربي، وذهبت أكثر الموضوعات في المحور الثقافي لتبيان أعمال ونشاطات الحركة الإصلاحية المختلفة عبر مختلف مناطق الوطن، فأعطت صورة لما كانت تقدمه من حركة فكرية ثقافية أدبية وعلمية تجسدت في تنظيم أمسيات شعرية، احتفالات ومحاضرات دينية تنقل فحواها عبر مقالات صحفية ترسم الفعل الاجتماعي المنظم والبديع لوسائل وأدوات النشاط الإصلاحي بين جموع المواطنين والمدعوين من الحاضرين والمثقفين في احتفالات ومناسبات والأمسيات متنوعة تبعث على وحدة اللحمة الفكرية الثقافية والمنهج الإسلامي الإصلاحي والسعي لتحقيق النهضة، ويبدو لنا ذلك مبررا لطبيعة تلك المرحلة فقد كان الصراع الفكري والثقافي على أشدّه بين النخب المثقفة ثقافة غربية (الحداثيين) وثقافة عربية إسلامية، وثقافة تقليدية(الطرقية والصوفية) فتلك الفترة كانت مفتوحة على عدة مذهبيات وإيديولوجيات على رأسها المذهبية الرأسمالية الليبرالية الماركسية والعلمانية... وسارت هذه النخب باتجاه نقد الدين الإسلامي والحملة عليه، كونها تؤكد على تخلّفه وعدم صلاحيته لإدارة الحياة الحديثة وعائقا أمام عملية التحديث ولابد من إزالته من الحياة الاجتماعية لتطور المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، أما الجبهة الثانية وهي الرد على الإسلام التقليدي الطرقي الذي خدّر العقول لعدة عقود وجمّد الفكر في قوالب جاهزة تمثلت في الاستسلام للقدرية والمحتوم والمكتوب والتسليم للوضع الاستعماري للبلاد وتقبّل العيش في كنفه وإثبات تخلّف الإسلام.

وعليه فإن جمعية العلماء المسلمين عبر مواضيعها المختلفة والمتنوعة في جريدتها البصائر وفق السياق العام للمجتمع الجزائري كانت تبحث في أسباب التخلّف والتأخر والتقهقر في العالم الإسلامي بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة فتعطي تشخيصا للأمراض والعلل التي فتكت به وأقعدته عن السير قدما والإنتاج عبر اقتراح السبل والطرق العلمية الميدانية الكفيلة بعودة الإسلام من جديد للريادة والفعل الحضاري الذي نهلت منه كل الحضارات في العالم من قبل، وهو الأمر الذي تولت التركيز عليه في المسائل **الأخلاقية والتربوية** ثم **الاجتماعية والاقتصادية،** فنادت عبر جريدتها جمعية العلماء وحمسّت أثرياء الجزائر لإعادة بعث الوقف الإسلامي الخيري والمساهمة في سنّ

تشييد المدارس العربية الحرة وبناء المساجد الحرة وفتح النوادي والجمعيات وتعميرها وكفالة الطلبة الفقراء لطلب العلم وتمويل التعليم العربي الحر والتي ستكون الوجه المعبّر عنه من خلال نقد أهم الجوانب التي تسببت في الانكسار والضعف لدى الفرد المسلم والأخذ بيده نحو الأخلاق والتربية الصحيحة، والإرشاد والتوجيه المناسب لتربية الأجيال وتنشئتها على التوجه الصحيح لمنهاج الكتاب والسنة بالعودة للأخلاق الحميدة ومكارمها في إطار الثقافة العربية الإسلامية بإصلاح التعليم العربي الإسلامي وإحيائه والاهتمام بالتربية وحثّ الأمة على إرسال أبنائها بغية تعليم وتثقيف أكبر عدد ممكن من أبناء المسلمين (الذكور والإناث) فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، كما لم تحرم الكبار من بث دروس الوعظ والإرشاد ومحو الأمية بتنظيم المحاضرات والتهذيب في شؤون الحياة العامة عبر نواديها ومساجدها ومدارسها.

لقد وقفت لمواجهة ومجابهة سياسة التجنيس بالمرصاد وأوردت في ذلك الفتاوى والمقالات منها بعنوان:"**المشكل الأعظم الجنس والتجنيس**"[41]وكتب الطيب العقبي افتتاحية بعنوان "**التجنس و المتجنسين**"،[42]أما لجنة الإفتاء لجمعية المسلمين كتبت في صحيفتها فتوى في افتتاحيتها بعنوان "**التجنس كفر وارتداد**"[43]ومقال آخر بعنوان "**فتوى جمعية العلماء المسلمين في التجنس الجزئي والكلي**"[44]إن الذي ظهر لنا من خلال تحليل مقالات جريدة البصائر أن سياسية جمعية العلماء وكتّابها لها مفهوم خاص بهم أخذت به منحى خاص ظهر في مختلف المواضيع التي تناولتها، فنظّرت لها وأسست لها بعمق ومارستها لأبعد الحدود إنّ هذه السياسة هي خدمة الأمة الجزائرية بصدق وإخلاص بتدبير الشؤون الدينية والدنيوية في مختلف المجالات الاجتماعية والمناحي الحياتية الثقافية الفكرية والتربوية، الاقتصادية عبر الأخذ بالأسباب الشرعية للعزة والفخر والانتماء الديني والقومي والتقدم في إطاره، وقد أشار الشيخ عبد الحميد بن باديس لذلك قائلا:" مبدؤنا في الإصلاح السياسي هو المحافظة التامة على جميع مقوماتنا ومميزاتنا كأمة لها مقوماتها ومميزاتها، والمطالبة بجميع حقوقها السياسية، والاجتماعية"، فالعمل السياسي الذي نستنتجه من الفكر السياسي والفلسفة السياسية التي ظهرت عبر جريدة البصائر هو جزء من العمل الإصلاحي العام الذي يدور في فلكه ويتوخى مقاصده ولا يخرج عن دائرته كونه(العمل السياسي)فهو ليس عملا

مستقلا بحد ذاته منفصل عن العمل الإصلاحي الديني بل هو كلٌ متكامل من العمل الديني والتربوي والثقافي والفكري وظهر جليا بارزا في رفض جمعية العلماء المسلمين مساندة فرنسا في الحرب العالمية الثانية وأصدرت فتواها في حق التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي وعلى إثر ذلك أوقفت جمعية العلماء من تلقاء نفسها جريدة البصائر خلال هذه الفترة حتى لاتتعرض للضغط بسياسة حكيمة ورزينة من علمائها ومصلحيها.

- **المسائل والقضايا الخارجية في جريدة البصائر**: لقد كان توجه جريد البصائر في هذا الجانب عربي إسلامي بحت وهذا ما تجسد خلال مواقفها المختلفة في نقلها للأخبار الدول العربية الإسلامية خاصة بداية ظهور بوادر اليقظة الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية لمختلف الأحداث الداخلية والخارجية في العالم الإسلامي آنذاك، والحق أن الصحافة الإصلاحية كانت أشد اهتماما بأحداث الأمة العربية من خلال مقالاتها مثل القضية الفلسطينية تحت الانتداب البريطاني والقدس الشريف، ثم قضية الاستيطان اليهودي فيما بعد...،والملاحِظ يجد أنّ جريدة البصائر من أكثر الجرائد التي منحت لمواضيع العالم العربي الإسلامي عناية خاصة فنقلت أخباره وتتبعتها، وكان من بين الكتّاب والعلماء الجزائريين الذين رفعوا أقلامهم لمواجهة الخطر اليهودي في فلسطين **محمد الحسيني، الطيب العقبي، ابن باديس، مبارك الميلي، عمر راسم...** وغيرهم في جريدة البصائر، حيث كان لهم دور ريادي وهام وكبير في إيقاظ مشاعر الجزائريين لمساندة القضية الفلسطينية، إذ نجدها نشرت عدة مقالات ولعل منها ما كتبه مفتي فلسطين **محمد الأمين الحسني** في العدد 24 بعنوان **من فلسطين الدامية الشهيدة** قال: "تواجه فلسطين العربية أحداثا خطيرة أخذت تجرّ وراءها نكبات ومآسي...، سقط فيها كثيرون من الشهداء والجرحى... فأصبحت المعونة المادية والمواساة واجب لكل عربي مسلم، الذي لا يكون إلا بالتعاون والتعاضد...لكل العالم الإسلامي لإخراج فلسطين من محنتها"[45]

8-نماذج مختصرة لأهم الموضوعات المطروحة في جريدة البصائر:

حتى لا يستغرقنا الوصف والتصنيف الكمي لموضوعات جريدة البصائر سنحاول عرض بعض القضايا المهمة التي ناقشها كتّاب جريدة البصائر في تلك المرحلة التاريخية ونكوّن نظرة لبعض معالم الخطاب الإصلاحي للحركة.

أ- الجانب العقدي الديني: برز دفاع شديد عن عقيدة الإسلام الصحيحة، فشغل موضوع الدفاع عن الإسلام والشبهات التي ألحقت به والتعريف بعقيدته الصحيحة ومحاربة الشرك ومظاهره حيّزا بارزا وواسعا ، كونها أهم المكونات الأساسية لهوية الفرد الجزائري والمجتمع، وشمله بالعناية والاهتمام كتّاب جمعية العلماء والبصائر عبر مقالات قارّة متعددة فمنها ما اتجه للتعريف بالإسلام كدعوة إنسانية للقيم والأخلاق والمعاملات الفاضلة المنشِئَة للتحضّر، ومنها ما اتجه لشرح مذاهبه بروح منافحة للرد على ما عداه من الإيديولوجيات والمذهبيات وهدم دعاواها حول الدين الإسلامي، فوجهت رسالة واضحة منذ عددها الأول وعلى لسان رئيسها **الشيخ عبد الحميد بن باديس** قائلا: كونوا كما تشاءون أيها السادة - فلكم وأنتم تمثلون ما تمثلون - كل احترامنا وظنوا بما تشاءون، فإنا على بصيرة من أمرنا، ويقين من استقامة خطتنا، ونبل غايتنا، ومهما تبدلت اعتقاداتنا في أناس بتبديل معاملاتهم لنا، فلن تتبدل ثقتنا بفرنسا وقانونها وخطتنا المستقبلية وهي نشر العلم والفضيلة، ومقاومة الجهل والرذيلة"[46].

وجاء مقال لرئيس تحريرها الشيخ الطبيب العقبي تحت عنوان"**جاء الحق وزهق الباطل** " للتنديد بالمؤامرات التي حيكت ضد جمعية العلماء وأنّ العلة الحقيقية تتمثل في فساد عقائد المسلمين التي في صدورهم ولابد من العمل على تقنينها من الشرك والعمل على تصفية الإسلام من البدع والضلالات فتوالت المقالات الدينية في ذلك بعناوين مختلفة ومتنوعة،"**نحن الإصلاحيون و خصماؤنا، الإسلام دين الله الخالد، الشرك ومظاهره، مقال عن الطرقية، التصوف، بعض البدع التي يجب على المسلمين إبطالها، 'عادة ممقوتة بدع في الصلاة العيد، نهضة الإصلاح الديني وأثرها في النفوس الهداية والغواية، الاعتقاد الخالص ، الإصلاح أمس واليوم...**"وغيرها من المقالات التي تحذّر أيضا من خطر التبشير الديني، لذلك اختارت جمعية العلماء عن طريق جريدة البصائر أن يكون أهم عمل لها تقويم الجانب الديني للفرد في خطابها وعملها الإصلاحي واختارت وفقا لذلك خطة دينية سارت عليها على علم وبصيرة أثرت بها أيما تأثير على الجماهير الجزائرية في توجيه الرأي وتوعيته وإيقاظه وبعثه لنهضة الأمة الجزائرية، حيث أن الأهداف التي سطّرتها لمنهجها طبقتها كلّها أو جزء منها تجلت في ميادين مختلفة.

ب- الجانب السياسي: عملت فيه على مواجهة سياسات الاستعمار الفرنسية بخططه واستراتيجياته فتجلت مظاهر العمل السياسي بتنظيمها للمؤتمر الإسلامي سنة1936م

الذي دعت إليه جمعية العلماء عبر جريدة البصائر كل الأطراف الفاعلة في الساحة السياسية آنذاك من أجل التكاتف والتآزر وتوحيد الرؤية والجهود الحركة الوطنية والإصلاحية للمطالبة بتحسين أوضاع الجزائريين المسلمين، والاستقلال عن الكيان الفرنسي بغية إعادة بناء الهياكل والعناصر والبنى الاجتماعية الجزائرية التقليدية الأصيلة التي هدمها الاستعمار الفرنسي، غير أنّ هذه المطالب قوبلت بالرفض بعدما عاد الوفد خاوي الأيدي من فرنسا، فنقلت تفاصيل المؤتمر في الجريدة وجعلت الجزائريين على إطلاع تام لمجريات الأحداث.إن توجه جريدة البصائر فيما يخص المسائل والمواضيع والقضايا الخارجية كان توجها عربيا قوميا إسلاميا محض، يهدف لربط الفرد الجزائري بانتمائه الحضاري والتاريخي والمحافظة على التماسك العربي الإسلامي فعملت على إيصال ما يمكنها إيصاله للقارئ لما يدور في العالم العربي والإسلامي من تطوّرات للأحداث في مختلف الميادين السياسية الفكرية والثقافية و الدينية العقدية والفتاوى وكذا العلمية التربوية، كما نقلت معاناة ومشاكل مختلف الدول العربية الإسلامية، داخلية وخارجية وعلاقتها بالدول المجاورة لها كمشروع المغرب العربي الإسلامي وبذلك أعادت ربط الجزائري بمجالها الحضاري.

ت- الفتاوى في جريدة البصائر: وردت في جريدة البصائر في سنتها الأولى خلال 50 عدد حوالي 13 فتوى على شكل مقال صحفي والذي سجلنا نسبته 03.36% من مجموع المقالات المنشورة فيها قيد الدراسة نظرا لأهميتها، أخذت جمعية العلماء العهد على أن لا تنشر الفتاوى في جريدتها (البصائر) إلا ما صدر من لجنة الفتوى وما أقرّته هذه اللجنة، لأن الفتوى ليس من شأنها أن تذاع في الصحف السيّارة وذلك تعظيما لشأنها، فلم يصدر من الفتوى إلا ما لا يجوز تأخير البيان فيه عن وقت الحاجة، كالتحذير من المكائد الاستعمارية في إمامة من ولّتهم السلطات الاستعمارية ومسألة إعلان رؤية هلال رمضان وهلال عيد الفطر لتلاعب الاستعمار بها. لكننا وبعد التدبّر في الكثير من مقالات أعلام جمعية العلماء للمسائل والمواضيع الدينية العقدية المتنوعة في العبادات والمعاملات لا يمكن إلا اعتبارها فتاوى إلا أنها في شكل مقال أدبي بأسلوب تهذيبي وفق منهج علمي بحت بتأصيل للمسائل والتدليل عبر استعراض معانيها اللغوية والشرعية وتقاسيمها وأنواعها وأحكام العلماء فيها مثل سلسلة: **الشرك ومظاهره للشيخ مبارك الميلي، والإسلام دين الله الخالد للشيخ الطيب العقبي**...وغيرها كثير.

- جريدة البصائر خصصت **للجانب التربوي الدعوي** فيها نصيبا وافرا ومهما، كانت تبرز فيه الجوانب والمجالات العقدية، السياسية، الاجتماعية الثقافية والفكرية التي يجب أن يتربى عليها النشء حتى تشمل أكبر عدد ممكن من أبناء الشعب الجزائري بالعناية والتربية والتوجيه، ومن بين المسائل الأخلاقية والتربوية التي عالجتها جريدة البصائر عملت ساهرة على غرس بذور التربية السليمة في نفوس الناشئة بأخلاق القرآن الكريم والإتحاد والقوة، برز مقال بعنوان"**نحن قوم لا نعتني بتربية أبنائنا**[47]"**للطاهر الزواغي** الذي يظهر فيه الضياع الذي وصلت له أخلاق المسلمين ويرد الأسباب لعدم عناية المسلمين بتهذيب أبنائهم وفق التربية الإسلامية الصحيحة، وحرصا على تأطير الشباب الفعال في مسيرة الأمة، صوّر الواقع المزري في ظل الاحتلال ليكون الشباب الجزائري على استعداد ودراية ووعي لما يحيط به من أهوال الاستعمار وما انجر عن سياساته التي ضربت الشخصية الوطنية والهوية وتحضيره لما هو أعظم عبر المواجهة والمجابهة، فنادت البصائر جيل الشباب للإقبال على ثلاثة أمور هي الخلاصة في بناء جيل صالح يقود الأمة لبر الأمان وهي: **الأخلاق والعلم، والوطنية،** فالأخلاق الفاضلة المستمدة من التعاليم الإسلامية التي تحيي النفوس وتوقظ العقول والضمائر من الجمود المفروض لعدة عقود، ترفع وتجنب الشباب المسلم من الانحلال والتميّع الخلقي وتبعث على الابتعاد عن الرذائل وسفاسف الأمور ليسموا (الشباب) بتفكيرهم والتطلع لحياة شريفة وكريمة ومشروعة في خدمة الوطن والمجتمع والأمة الإسلامية بتقديم المصلحة العامة على المصالح الذاتية الشخصية الأنانية ولا يكون ذلك إلا عند الأخذ بزمام التعليم والعلم والمعرفة فهي معادلة تجعل من الأول يستلزم ويكمّل الثاني، أما الوطنية فهي تربط الشباب الجزائري بالوطن والعمل على المحافظة عليه وتخليصه من أيدي مغتصبيه، فالشباب ركيزة المجتمع[48]، ورأسماله لابد من تنقية عقيدته وحمايته من رواسب التيّارات الفكرية الغربية الملحدة الهدامة التي تلهيه عن دينه وعقيدته والنجاة به من الانحلال الخلقي والإباحية، عبر تكوينه على أسس دينه القويم قائدا لأمته نحو المستقبل يخلصها من دنس الاحتلال؛ فقامت جريدة البصائر بنشر العديد من المقالات تدعوا فيها الشباب المسلم للإقلاع عن الآفات الاجتماعية المحرمة وغير المرغوب فيها، وعرّفته وأجابته بمقال"**لمن أعيش؟**"عن هويته؛ ومما اهتمت بمحاربته ظاهرة **شرب الخمور**[49]وأصدرت في ذلك العديد من الفتاوى، وكذا **آفة انتشار**

الأغاني الماجنة خاصة تلك التي كانت تذاع على الراديو[50]وهي آفة تهدد الشعوب بالتدهور الأخلاقي، كما اهتمت بمحاربة **آفة الزنا والبغاء** وأبرزت مفاسده وأضراره على فئة الشباب الذي ضُيّعت طاقاته واعتبرت الآفة"باب يُدخل الشباب إلى جميع الرذائل ففيها يتلقى دروس الخمر والمخدرات والفحشاء والكذب وسوء الأخلاق وهكذا يتصل بسلسلة من المفاسد لا حصر لها ولا منتهى..."[51]؛كما اهتمت بنشر فضائل الأخلاق والتحذير من الآفات النفسية **كالحسد والكذب** واهتمت بربط الجزائريين عبر نشر مقالات تدعوا **للأخوة الجزائرية برباط الفتح** للكاتب **أبو العباس أحمد بن الهاشمي**[52]تدعوا فيها للتكاتف والاتحاد والتضامن والتكافل ضد العدو الواحد، وبذلك تكون قد تصدت عبر إستراتيجية وخطة منهجية محكمة لسياسات التفرقة بين الجزائريين التي بثتها فرنسا لمحاولة فصل منطقة القبائل وحذرت من مغبة السقوط في مثل هذه الهاوية. وعليه فإن البعد الاجتماعي من منظوره الإسلامي كان حاضرا من خلال مواضيع اجتماعية مختلفة تهتم وتبحث في مختلف قضايا الفرد المسلم في حياته اليومية وعلاقاته الاجتماعية، كما أبرزت دور الحضارة الإسلامية في بعث نهضة أوروبا وأزاحت اللبس والغموض والتغييب عن كثير من القضايا الإسلامية وأزالت الشبهات والافتراءات التي ألصقت بالدين والحضارة الإسلامية في تأخر المسلمين.

ومما سبق يمكننا استخلاص جملة من **النتائج المختصرة** في النقاط التالية:

- تميزت المقالات المدروسة بأسلوب أكاديمي حملت لغة ثرية ونمط تحليل يستند للحجج والبراهين وفكرا راقيا موجّه للنخبة المثقفة باللغة العربية وكل من يقرأ ويكتب، ما جعلها تعرف مقرؤية واسعة بين مختلف شرائح وفئات المجتمع داخل وخارج الوطن.
- تصدر جريدة البصائر مباشرة عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بأقلام أعضائها فدافعت عن قيم ومبادئ الجمعية المستمدة تواجهها من لب العقيدة الصحيحة وهدي السلف الصالح، فبيّنت فلسفة أفكارها بإيجاد توازن ثقافي أدى للتوازن السياسي، حيث سعت لتوعية الفرد الجزائري برصيده الثقافي والحضاري وقيمه ومبادئه وتاريخه المختلف عن ثقافة وقيم ومبادئ وتاريخ المجتمع الفرنسي الاستعماري؛ ما أعاد لدور التربية الإسلامية ومبادئها فعالية العمل الإصلاحي الصحيح المنوط بها في حفظ وتربية النشء والأجيال المسلمة، وحرّكت الإحساس بالتاريخ الإسلامي المشترك والانتماء العربي الإسلامي في نفوس المثقفين وكيفية الاستفادة منه.

- برزت جريدة البصائر كجريدة أسبوعية ذات اتجاه عربي إسلامي حملت على عاتقها مهمة التعريف بحقيقة الإسلام وعقيدته باعتباره دين الوحدة والعدالة والحرية والكرامة الإنسانية، فعملت على تكوين جيل آمن بدينه وعقيدته فأبرزت مكوناته الشخصية ودعائم هويته الحضارية، واتجهت لتصفية الفضاء الثقافي والديني من القيم الثقافية السلبية والدخيلة ورواسبها التي بثتها الطرقية المنحرفة، بخطابات إيديولوجية وإستراتيجية تسعى للمطالبة بتحرير التعليم العربي الحرّ وتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية بأسلوب علمي بليغ و راقي أحيت أسسه المجيدة، كما أعادت بعث بيان اللغة العربية من موروثنا الثقافي(القرآن والسنة) في الأقلام والألسنة، وفضلها في ذلك لا يمكن نكرانه.

- بنت أسس وقواعد النهضة العلمية والفكرية للحضارة الجديدة المعاصرة وغرست نواتها في الأمة بحماية الأجيال فكريا وتأمين تعبئة الشعب للأخذ بأسباب التغيير والنهضة، فخدمت القرآن والسنة النبوية بالدعوة إليهما وتفهيمها والعمل والتحاكم بهما وإليهما، وأقضّت صروح الجهل وهدمت السجون التي ضُربت على العقول والتي كرستها ثقافة الهزيمة، وبنت حاضرة العلم على نطاق واسع في مختلف الفئات وطبقات المجتمع، ما أدى لانتعاش الحياة الفكرية والثقافية تمهيدا للانعتاق وبناء الاستقلال العلمي والنفسي والفكري الذي تبنى عليه أسس الاستقلال الفكري والثقافي ثم أسس استقلال الوطن كمحصلة للعمل الإصلاحي واسترجاع بناء مقومات الشخصية الجزائرية من عروبة وفكر إسلامي وتراث حضاري زاخر، فأحدثت نهضة فكرية ثقافية علمية تعليمية دينية في النوادي والتنظيمات(كالتنظيمات الطلابية)لايعرف لها مثيل في التاريخ المعاصر كبناء المدارس العربية الحرّة والمساجد والنوادي والجمعيات... وتمويل التعليم وبعث العديد من الأوقاف لتغذية الحياة الثقافية؛ والذود عن الإسلام وعقيدته، فناضلت من أجل تحقيق معادلة الربط بين الأصالة والمعاصرة والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية وكذا الاعتناء بمادة التاريخ العربي الإسلامي والاهتمام بقضايا المرأة وإدماجها في المجتمع من خلال توعيتها وتعليمها حتى تكون عنصرا فاعلا فيه لتوحيد جهود الأمة في خدمة قضاياها المصيرية والجوهرية والتقيّد بخطها الفكري للتغيير والإصلاح ثم الاستقلال.

- ضمّت جريدة البصائر أسماء كتّاب من مختلف مناطق العالم العربي والإسلامي، الأمر الذي يدّل على وجود وحدة قومية في التوجّه والفكر والرأي حول القضايا العامة المطروحة مثل: العقيدة والتصوّف والتشيّع واللغة والتعليم والهوية والثقافة والتربية و الاستشراق والتنصير... و برزت هذه المواضيع كثوابت راسخة في عمق الهوية والضمير الجمعي لا يمكن تفكيكه؛ فأحيت دين الأمة بإعادة صورة وسلطان الدّين الصحيح لنفوس الأفراد، وفتحت لذلك المجال لأقلام الكتّاب من المغرب العربي والعالم الإسلامي.

- برز سجال كبير عبر جريدة البصائر بين التيارين الإصلاحي والتقليدي(الطرقي) خاصة في قضايا العقيدة والبدع والخرافات الدخيلة عليها، فعرفت هذه القضايا حربا إعلامية حادة عبر الصحف ابتداءا من كونها جبهة داخلية لابد من تنقيتها لأنها مدرسة للدروشة والبدع والضلال استخدمه الاستعمار كمذهب طيّع وإيديولوجية موجهة لبث وتثبيت التخلّف والانهزامية.

- جاهدت جمعية العلماء المسلمين عبر جريدة البصائر بالقول ونشاطاتها وميادين إصلاحها بالعمل من خلال فتح باب الاجتهاد في الدّين بضوابطه وشروطه، إيمانا منها أنه ضرورة حتمية لمواكبة تطوّرات العصر، في محاولة لإيجاد حلول للقضايا المستجدة على الساحة الوطنية والدولية ما أدى لتوازن على المستوى الثقافي والحضاري عبر بث الوعي الديني والإيديولوجي ونشر أعمالها ونشاطاتها المتنوعة داخل وخارج القطر.

- غيّرت مجريات الأحداث على الساحة الدينية حيث أصبحت مرجعية القطر الجزائري في الإفتاء وبذلك سدّت فراغا هاما كان أحدثه الاستعمار بإزالة منصب شيخ الإسلام، فوقفت سدا منيعا للإلحاد بمختلف أشكاله وتياراته وأظهرت محاسن الدّين الإسلامي ومقاصد الشريعة الإسلامية السمحة، فكانت أمينة في الحفاظ على دين الأمة من خلال ما أصدرته من فتاوى هامة وزاجرة عن التجنس والإدماج وزواج الكتابيات...،لأنها راعت المصلحة وخشيت من خلالها التمهيد لرِدّة المسلمين وأبنائهم عن دينهم بقوة القوانين الفرنسية الأجنبية، كما حذّرت من خطر التبشير والإستشراق وصدّت عدوانهما على العقيدة الإسلامية والشخصية الجزائرية.

- أكّدت الجريدة أن طلب العلم في المدارس الفرنسية الاستعمارية ليس عملا نبيلا وبريئا، فهو مصحوب بمقارنات خطيرة وهي: الانبهار بعلوم الثقافة المهيمنة والمسيطرة و إزدراء واحتقار الثقافة الخاضعة المنهزمة، ودحضت المزاعم الفرنسية فيما يتعلق بواقع

التعليم في الجزائر وبينت أن الاستعمار الفرنسي هو المتسبب في تأخر التعليم في بلادنا، وأبرزت العمل الجبّار الذي كانت تقوم به مدارس جمعية العلماء من تكوين للمدرسين وتخريج المعلمين للحفاظ على النسق التربوي للمجتمع وإعادة بعثه.

- عارضت جريدة البصائر وبشدة وبقوة وبصفة مطلقة قضية التجنّس والتجنيس الذي استخدمته السياسة الاستعمارية لإفراغ الفرد الجزائري المسلم من دينه ومعتقده وواجباته وحقوقه الإسلامية، فكان من بين أهم وأخطر الأسلحة الإيديولوجية مكرا وفتكا بالمجتمع الجزائري كونها كانت تحارب اللغة العربية ودين الإسلام و الشخصية والهوية الوطنية لتمزيق الانسجام الداخلي في المجتمع الجزائري.

- تبنت جريدة البصائر اتجاها معارضا للتنصير ونددت وحذرت منه مؤكدة أن احتلال فرنسا للجزائر ما كان إلا حربا صليبية على الإسلام في شكل جديد يدّعي نشر التحضّر والحضارة الغربية، وأن التنصير اتخذ لباسا ملائكيا ظاهره التطبيب والتمريض والمواساة والمساعدة والتعليم يخفي تحته دسائس شيطانية تهدف لتجريد المسلمين من مقوماتهم وهويتهم الشخصية والتنكر لأصلهم.

- أزالت شكّ النسب الذي خيّمه الاستعمار على عقول كثير من الناس، فقد أقنعت ضعاف النفوس أن البنية السكانية التي كانت عليها الجزائر تنذر بخطر على من سمتهم بالسكان الأصليين من البربر، حيث عارضت الجريدة بأقلام أعلامها بصفة مطلقة هذا الموضوع الذي استخدمه الاستعمار لنشر الفرقة العرقية والدينية لإحداث فجوة بين البربر والعرب، وهي سياسة خطيرة انتصب لها الشيخان **عبد الحميد بن باديس** و **الإبراهيمي** وفندوا شبه العنصرين المدعومين من الاستعمار وأقاموا على ذلك الحجج من التاريخ واستطاعوا رأب الصدع الحاصل، فجمعوا في جمعية العلماء وجريدة البصائر كل العناصر السكانية الجزائرية من عرب وبربر وعملوا يدا بيد في سبيل تحرير الأمة وانهارت أمامهم كل مزاعم سياسة الظهير البربري وأعادت اللحمة بين تلك العناصر بإخلاص علماء ومصلحي جمعية العلماء ونبل أهدافهم.

- إن ترويج فكرة **الأمة الجزائرية** و**الجنسية القومية** و**الشخصية الجزائرية** و**الكيان الجزائري العربي الإسلامي** عبر صفحات جريدة البصائر بقلم أعلامها ماهي إلا تأكيد واضح وصريح بين فرنسا والجزائر التي لم تندمج ودليل قاطع على وجود شخصية جزائرية مع كل مالها من مقومات ومن زخم ثقافي التي تحيل لمدلولات ذات مغزى

سياسي، فقادت جمعية العلماء نضال ثقافي عبر جبهة حساسة يختلط فيها الثقافي بالسياسي وهي إشكالية الهوية والقومية والشخصية الجزائرية عبر مجال العمل والمناورة والمهادنة في جهد العلماء التربوي والثقافي الذي بدا قريبا جدا من المجال السياسي من خلال التشديد على اللغة العربية والدين الإسلامي وإحيائها في الوسط الجزائري والذي كان ينظر إليه على أنه تعبير عن شعور معادٍ لفرنسا وتحدٍ واضح لسيادتها ويناقضها بقوة ويحاربها في عمق مشروعها الاستعماري في الجزائر.

خاتمة:

إن ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يعد حدثا تاريخيا هاما أقام ركائز ثورة في الأفكار وتغييرا في العقول ويقظة في النفوس وصحوة في الضمائر، لذلك كانت بحق مقاومة فكرية وثورة ثقافية حفظت للأمة الجزائرية أمنها وحياتها الفكرية الثقافية والحضارية وشخصيتها العربية الإسلامية حتى الآن، وذلك بإدراك علمائها أهمية البعد الثقافي والفكري وضرورته لاستنهاض الأمة عبر ينابيع العلم والمعرفة الصحيحة، حيث درّس الأساتذة ووعظ الوعّاظ وعلّم المعلمون، وكتب الكتّاب وانتقد النقاد وأفتى الفقهاء والعلماء...لتأسيس مرجعية إيديولوجية تنتظم وتتوحد فيها الجهود الإصلاحية فعبرت عن نهضة ثقافية عريقة أعادت للجزائر اعتبارها وعرّفت بشخصيتها وهويتها وفق محتواها الديني وإرثها التاريخي ومخزونها الثقافي وتقاليدها الاجتماعية السليمة فتمكنت من تأكيد وظيفة التغيير الاجتماعي التي تحققت بالإصلاح الديني على أسس تعزيز النسق الديني بمنهج التصفية والتربية بتخلية عقيدة الأفراد من الشرك والبدع ثم إحلال العقيدة الدينية الصحيحة بالتربية والتعليم والتكوين على المنهج النبوي الصحيح للأفراد والمجتمع.

تصدّت جمعية العلماء المسلمين بمختلف الوسائل لمشاريع التدمير الاستعمارية فأعطت بذلك الأساس والقاعدة المتينة للنهضة الجزائرية وطاقة للاندفاع نحو الأهداف بعدما تمكنت من تشخيص أزمات المجتمع واضطرابات مكوناته بكل جدية وفق طرق علمية معرفية و التشخيص بموضوعية لرسم خطة دينية تسير وفقها جمعية العلماء لتحقيقالتوازن ورأب الصدع الحاصل ثم السعي لإعداد أرضية الاستقلال في إطار الشخصية والهوية العربية الإسلامية للكيان الجزائري؛ فتمكنت من تحقيق إصلاح اجتماعي في إطار تمسكه بدينه والرجوع إليه، ما بوأها مكانة مميّزة وقاعدة مرجعية أساسية للجزائريين نتيجة لجهودها وأعمالها في تصحيح المعتقد ما دفعها لبعث الدعوة الإسلامية من جديد على أسس بيّنة صحيحة أساسها و جوهرها إصلاح الفرد المسلم.

وخلاصة القول أن حركة الإصلاح الديني في الجزائر رغم مالها من جذور عميقة ضاربة في تاريخ الحركات الإصلاحية الإسلامية في العالم العربي والإسلامي إلا أنها فريدة من نوعها كونها مثلت نسيجا اجتماعيا وحيد في شكله وعناصره وفحواه، ركزت على بناء النخبة التي تمثل عقل الأمة ومرجعيتها وقيادتها، لتبرز أهمية دورها في تنظيم وتفعيل

دور التربية الصحيحة والتأسيس لبناء نسق ثقافي يحقق الإصلاح الشامل لينفذ عبر مختلف الأنساق والبنى الاجتماعية العامة بمنهج حياة يتغلغل لأعماق الحياة اليومية من حركات وسكنات الفرد والمجتمع،فلم تكن حركة دينية لما هو مألوف مثلها في ذلك مثل باقي الحركات الدينية الإصلاحية، لكنها حركة تفرّدت باستقطاب كل المهام الاجتماعية بالعناية وأدركت بالترميم والبناء والإحياء والتأطير والعناية لمنابع الأوقاف التي جففها وأوقفها الاحتلال، فغدت روافد الحياة الثقافية والفكرية ماديا ومعنويا بالعناية والدروس والخطب والمواعظ وأمّنت الأمة الجزائرية فكريا وثقافيا وحضاريا من تهديد الاستعمار والغزو الفكري والثقافي وضعتها بذلك على خط تاريخ الأمم الحضارية حتى تتأهل لتسلق درجات الرقيّ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

الهوامش

[1] Achille Fillias, Histoire de la conquête et de la colonisation de l'Algérie (1830-1860), paris 1860, p157.

[2] Pichon, Alger sous la domination français ,son état présent et son avenir, paris, 1833, p2.

[3] Charles. r. Ageron, histoire contemporaine de l'Algérie, p.u.f.1964.p09.

[4]شارل روبير آجيرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا،1871-1919، ج1، تر، حاج مسعود، أ، بكلي الجزائر ، دار الرائد للكتاب، 2007، ص243.

[5]محمد العربي ولد خليفة،"من مركب الذنب إلى تبييض الجريمة،" أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي 02-03، جويلية 2006، الجزائر ، منشورات وزارة المجاهدين، 2007، ص156.

[6]محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، ط1، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991، ص ص150،142 بتصرف.

[7] François Burgat, l'islamisme au Maghreb la voix du sud, paris, éd Payot & rivages, 1995, p60.

[8]محمد الميلي، "في ذكرى الاستقلال أولويات الاستعمار في القرن الـ19 "الجزائر ،جريدة الشروق اليومي، 2005/07/05، العدد1425، 2400

[9]هشام جعيط، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، المنجي الصيادن، سلسلة السياسة والمجتمع، بيروت، دار الطليعة، ص24.

[10]محمد العربي ولد خليفة،الاحتلال الاستيطاني للجزائر، مقاربة للتاريخ الاجتماعي و الثقافي، ط3، الجزائر، منشورات ثالة،2010،ص44

[11]أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954، ج5، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص193.

[12]ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص ص162 -165 بتصرف.

[13]المرجع السابق، ص163-170 بتصرف.

[14]يقدح الزبير، سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وثقافة المقاومة الشعبية، رسالة لنيل دكتوراه دولة في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر،2006-2007 ، ص03.

[15]بوبكر جيلالي، إستراتيجية البناء الحضاري، عند مالك بن نبي، ط1، الجزائر، دار قرطبة،2011، ص146.

[16] Charles, robert Ageron, les algériens et la France (1871-1919) tom 1, publication de la faculté des lettres et sciences humaines de paris, Sorbonne, série, recharges, tom, 44,1er Ed .paris, p.u.f, 1968, p317.

[17] Ibid., p201.

[18]أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830،1500 ، ج4،ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998،ص ص 28،42 في مواضع متفرقة بتصرف.

[19]أحمد حمدي، جذور الخطاب الإيديولوجي الجزائري، إشراف مصطفى ماضي، سلسلة معالم الجزائر، دار القصبة للنشر، 2001، ص72.

[20]مايكل ويليس،التحدي الإسلامي في الجزائر، الجذور التاريخية والسياسية لصعود الحركة الإسلامية، تر: عادل لخير الله، طه، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1999، ص ص ،22-23.

[21]الطاهر عمري، النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع 1900،1940، رسالة دكتوراه غير منشورة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة الأمير عيد القادر، قسنطينة،2003 -2004 ص: 101

محمد عابد الجابري ، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،1999،ص.[22]190

[23]محمد صالح الهرماسي، مقاربة في إشكالية الهوية، المغرب العربي المعاصر، ط1، دمشق، دار الفكر،2001، ص111.

[24]أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1860-1900، ج1، مرجع سبق ذكره، ص247.

[25]عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث دراسة سسيولوجية، تر: فيصل عباس،مراجعة خليل أحمد خليل، السلسلة التاريخية، ط3،الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،1983،ص77.

[26]عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص110.

[27]Abdallah Laroui, L'histoire du Maghreb, tom11, France, Maspero, 1970, p177.

[28]يقدح الزبير، سياسة الاستعمار الفر الفرنسي في الجزائر وثقافة المقاومة الشعبية،ج1، مرجع سبق ذكره، ص36.

[29]عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، الدراسة السسيولوجية، مرجع سبق ذكره، ص70

[30]علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، تر: محمد يحياتن، الجزائر، دار الحكمة، 2007، ص20.

[31]عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر، مرجع سبق ذكره،ص70.

[32] Charles-robert Ageron, histoire de l'Algérie, contemporaine de l'insurrection de 1871 au déclenches de la guère délibération 1954, tom11, paris, p.u.f, 1976, pp : 233-234.

[33]علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، مرجع سبق ذكره، ص ص، 48-51 بتصرف.

[34]أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ط4، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992،ص295.

[35]أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج5، مرجع سبق ذكره، ص250.

[36]محمد خير الدين ، مذكرة الشيخ محمد خير الدين، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، دت،ص123.

[37]المرجع السابق، ص81.

[38]محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية، 1847-1954، ط2، الجزائر، الصنوبر البحري، 2006، ص212.

[39]القرآن الكريم، سورة الأنعام الآية 104.

[40]جريدة البصائر، الجزائر، العدد الأول، 27 ديسمبر، 1935الموافق ل01 شوال1354هـ، ص1.

[41]جريدة البصائر، الجزائر، العدد22،السنة الأولى، 05 جوان 1936م.

[42]المرجع السابق.

[43]المرجع السابق، العدد 95، السنة الثالثة، 14 جانفي، 1938، ص01.

[44]المرجع السابق.

[45]المرجع السابق، العدد 24، السنة الأولى، جوان1936.

[46]البصائر، الجزائر، العدد01، 1شوال 1354ه الموافق 27 ديسمبر 1935، ص01.

[47]البصائر، الجزائر، العدد13، السنة الأولى، 03 أفريل، 1936، ص07.

[48]عيسى بن محمد الدراجي،"شباب باكورة الحياة"، البصائر، الجزائر، العدد16، السنة الأولى، 24 أفريل1936، ص08.

[49]محمد عبد الهادي التازي، "الخمر وخطره العظيم"، البصائر، الجزائر، العدد31، السنة الأولى،07 أوت 1936، ص08.

[50]الفتى المغربي،" آفة الراديو و خطره على الأخلاق"، البصائر، الجزائر، العدد 6، السنة الأولى، 7 فيفري، 1936، ص08.

[51]عبد الكريم الزهراني،" البغاء ومفاسده"، البصائر، الجزائر، العدد21، السنة الأولى، 29 ماي 1936، ص08.

[52]البصائر، العدد 27، السنة الأولى، 10 جويلية، 1936، ص ص5 ،6.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ط4،بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992.
3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954، ج5، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998.
4. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،1830،1500، ج4،ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998.
5. أحمد حمدي، جذور الخطاب الإيديولوجي الجزائري،إشراف:مصطفى ماضي،سلسلة معالم الجزائر،دار القصبة للنشر2001.
6. بوبكر جيلالي، إستراتيجية البناء الحضاري، عند مالك بن النبي،ط1،الجزائر،دار قرطبة،2011.
7. الزبير يقدح، سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وثقافة المقاومة الشعبية، رسالة لنيل دكتوراه دولة في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر،2006-2007.

8. شارل روبير آجيرون،الجزائريون المسلمون وفرنسا،1871-1919،ج1،تر:حاج مسعود،أ،بكلي،الجزائر،دار الرائد للكتاب، 2007.

9. الطاهر عمري، النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع 1900- 1940، رسالة دكتوراه غير منشورة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عيد القادر، قسنطينة،2003 -2004.

10. عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث دراسة سسولوجية، تر: فيصل عباس،مراجعة خليل أحمد خليل، السلسلة التاريخية، ط3، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،1983.

11. علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من1925إلى 1940، تر: محمد يحياتن، الجزائر، دار الحكمة، 2007.

12. عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

13. مايكل ويليس، التحدي الإسلامي في الجزائر، الجذور التاريخية والسياسية لصعود الحركة الإسلامية، تر: عادل لخير الله، طه، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1999.

14. محمد العربي ولد خليفة،"من مركب الذنب إلى تبييض الجريمة"،أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي 02-03،جويلية 2006، الجزائر، منشورات وزارة المجاهدين، 2007.

15. محمد العربي ولد خليفة،الاحتلال الاستيطاني للجزائر،مقاربة للتاريخ الاجتماعي والثقافي،ط3،الجزائر،منشورات ثالة، 2010

16. محمد الميلي،في ذكرى الاستقلال أولويات الاستعمار في القرن الـ19"الجزائر"جريدة الشروق اليومي،2005/07/05،العدد 1425هـ

17. محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، ط1، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991.

18. محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية، 1847-1954،ط2، الجزائر، الصنوبر البحري،2006

19. محمد خير الدين ، مذكرة الشيخ محمد خير الدين، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، دت.

20. محمد صالح الهرماسي، مقاربة في إشكالية الهوية، المغرب العربي المعاصر، ط1، دمشق، دار الفكر،2001

21. محمد عابد الجابري ، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،1999

22. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

23. هشام جعيط، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، المنجي الصيادن، سلسلة السياسة والمجتمع، بيروت، دار الطليعة.

24. جريدة البصائر، الجزائر، العدد الأول، 27 ديسمبر، 1935الموافق ل01 شوال1354هـ.

25. جريدة البصائر، الجزائر، العدد22،السنة الأولى، 05 جوان 1936م.

26. جريدة البصائر، الجزائر، العدد01، 1شوال 1354هـ الموافق 27 ديسمبر 1935، ص01.

27. جريدة البصائر، الجزائر، العدد13، السنة الأولى، 03 أفريل، 1936، ص07.

28. عيسى بن محمد الدراجي،"شباب باكورة الحياة"، البصائر، الجزائر، العدد16، السنة الأولى، 24 أفريل1936

29. محمد عبد الهادي التازي، الخمر وخطره العظيم، البصائر، الجزائر، العدد31، السنة الأولى،07 أوت 1936.

30. الفتى المغربي، آفة الراديو و خطره على الأخلاق، البصائر، الجزائر، العدد 6، السنة الأولى، 7 فيفري، 1936.

31. عبد الكريم الزهراني، البغاء ومفاسده، البصائر الجزائر، العدد21، السنة الأولى، 29 ماي 1936.

32. البصائر، العدد 27، السنة الأولى، 10 جويلية، 1936.

33. Achille Fillias, histoire de la conquête et de la colonisation de l'Algérie (1830-1860), paris 1860.

34. Pichon, Alger sous la domination française ,son état présent et son avenir, paris, 1833

35. Ch. r Ageron, histoire contemporaine de l'Algérie, p.u.f.1964.

36. François Burgat, l'islamisme au Maghreb la voix du sud, paris, éd Payot &rivages, 1995.

37. Charles, robert Ageron, les algériens et la France (1871-1919), publication de la faculté des lettres et sciences humaines de paris, Sorbonne, série, recharges, 44,1er Ed .paris, p.u.f, 1968.

38. Abdallah Laroui, L'histoire du Maghreb, tom11, France, Maspero, 1970.

39. Charles-robert Ageron, histoire de l'Algérie, contemporaine de l'insurrection de 1871 au déclenches de la guère de libération 1954, tom11, paris, p.u.f, 1976.